الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٤٤ — ٦ ابريل سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 144.

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi 6-4-1936

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٤٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٤ محرم سنة ١٣٥٥ — ٦ أبريل سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــدد

ولـــدى !!



يا قارئى أنت صديق فدعنى أرق على يديك هذه العبرات الباقية ! هذا ولدى كما ترى ، رُزقتُه على حال عابسة كاليأس ، وكهولة بائسة كالهرم ، وحياة باردة كالموت ، فأشرق فى نفسي إشراق الأمل ، وأورق فى عودى إيراق الربيع ، وولّد فى حياتى المقيمة معانى الجِدّة والاستمرار والخلود !

كنت فى طريق الحياة كالشارد الهيمان ، أنشد الراحة ولا أجد الظل ، وأفيض المحبة ولا أجد الحبيب ، وألبس الناس ولا

أجد الأنس، وأكسب المال ولا أجد السعادة، وأعالج العيش ولا أدرك الغاية!! كنت كالصوت الأصم لا يُرجّعه صدى، والروح الحائر لا يُقرّه هدى، والمعنى المبهم لا يحدده خاطر!! كنت كالآلة تنتجها آلة واستهلكها عمل، فهي تخدم غيرها بالتسخير، وتميت نفسها بالدءوب، ولا تحفظ نوعها بالولادة؛ فكان يصلني بالماضي أبي، ويمسكني بالحاضر أجلي، ثم لا يربطني بالمستقبل رابط من أمل أو ولد. فلما جاءني (رجاء) وجدتُني أولد فيه من جديد؛ فأنا أنظر إلى الدنيا بعين الخيال، وأبسم إلى الوجود بثغر الأطفال، وأضطرب في الحياة اضطراب الحي الكامل يدفعه من ورائه طمع، ويجذبه من أمامه طموح! شعرت بالدم الحار يتدفق نشيطاً في جسمي، وبالأمل القوي ينبعث جديداً في نفسي، وبالمرح الفتيّ يضج لاهياً في حياتي، وبالعيش الكئيب تتراقص على حواشيه الخضر عرائس المنى! فأنا ألعب مع رجاء بلُعبه، وأتحدث إلى رجاء بلغته، وأُتبع عقلي هوى رجاء فأدخل معه دخول البراءة في كل ملهى، وأطير به طيران الفراشة في كل روض ثم لم يعد العمل الذي أعمله جديراً بعزمي، ولا الجهد الذي أبذله كفاء لغايتي، فضاعفت السعي، وتجاهلت النصَب، وتناسيت المرض، وطلبت النجاح في كل وجه؛ ذلك لأن الصبي الذكي الجميل أطال حياتي بحياته، ووسّع وجودي بوجوده، فكان عمري يغوص في طوايا العدم قليلاً قليلا ليمد عمره بالبقاء، كما يغوص أصل الشجرة في الأرض ليمد فروعها بالغذاء

شغل رجاء فراغي كله، وملأ وجودي كله، حتى أصبح شغلي ووجودي! فهو صغيراً أنا، وأنا كبيراً هو؛ يأكل فأشبع، ويشرب فأرتوي، وينام فأستريح، ويحلم فتسبح روحي وروحه في اشراق سماوي من الغبطة لا يوصف ولا يحد!!

ما هذا الضياء الذي يشع في نظراتي؟ ما هذا الرجاء الذي يشيع في بسماتي؟ ما هذا الرضا الذي يغمر نفسي؟ ما هذا النعيم الذي يملأ شعوري؟ ذلك كله انعكاس حياة على حياة، وتدفق روح في روح، وتأثير ولد في والد!؟

***

ثم انقضت تلك السنون الأربع! فصوّحت الواحة وأوحش القفر، وانطفأت الومضة وأغطش الليل، وتبدد الحلم وتجهم الواقع، وأخفق الطب ومات رجاء!!

ياجبار السموات والأرض رُحماك!! أفي مثل خفقة الوسنان تبدَّل الدنيا غير الدنيا، فيعود النعيم شقاء والملاء خلاء والأمل ذكرى؟! أفي مثل تحية العجلان يصمت الروض الغَرِد، ويسكن البيت اللاعب، ويقبح الوجود الجميل؟! حنانيك يا لطيف! ما هذا اللهيب الغريب الذي يهب على غشاء الصدر ومَراق البطن فيرمض الحشا ويذيب لفائف القلب؟ اللهم هذا القضاء فأين اللطف؟ وهذا البلاء فأين الصبر؟ وهذا العدل فأين الرحمة؟

إن قلبي ينزف من عيني عبرات بعضها صامت وبعضها مُعول! فهل لبيان الدمع ترجمان، ولعويل الثاكل ألحان؟ إن اللغة كونٌ محدود فهل تترجم اللانهاية؟ وإن الآلة عصب مكدود فهل تعزف الضرم الواري؟ إن من يعرف حالي قبل رجاء وحالي معه يعرف حالي بعده! أشهد لقد جزعت عليه جزعا لم يغن فيه عزاء ولا عظة! كنت أنفر ممن يعزيني عنه لأنه يهينه، وأسكن الى من يباكيني عليه لأنه يُكبِره، وأستريح إلى النادبات يندبن الكبد الذي مات والأمل الذي فات والملك الذي رُفع!

لم يكن رجاء طفلا عاديا حتى أملك الصبر عنه وأطيع السلوان فيه؛ إنما كان صورة الخيال الشاعر ورغبة القلب المشوق! كان وهو في سنه التي تراها يعرف أوضاع الأدب، ويدرك أسرار الجمال، ويفهم شؤون الأسرة، ويؤلف لي (الحواديت) كلما ضمني وإياه مجلس السمر! كان يجعل نفسه دائماً بطل (الحدوتة) فهو يصرع الأسود التي هاجت الناس من حديقة الحيوانات، ويدفع (العساكر) عن التلاميذ في أيام المظاهرات، ويجمع مساكين الحي في فناء الدار ليوزع عليهم ماصاده ببندقيته الصغيرة من مختلف الطير!

والهف نفسي عليه يوم تسلل إليه الحِمام الراصد في وعكة قال الطبيب إنها (البرد)، ثم أعلن بعد ثلاثة أيام أنها (الدنتريا)! لقد عبث الداء الوبيل بجسمه النضر كما تعبث الريح السموم بالزهرة الغضة! ولكن ذكاءه وجماله ولطفه ما برحت قوية ناصعة، تصارع العدم بحيوية الطفولة، وتحاجُّ القدَر في حكمة الحياة والموت!!

والهف نفسي عليه ساعة أخذته غصة الموت، وأدركته شهقة الروح، فصاح بملء فمه الجميل: (بابا! بابا!) كأنما ظن أباه يدفع عنه مالا يدفع عن نفسه!

لنا الله من قبلك ومن بعدك يا رجاء، وللذين تطولوا بالمواساة فيك السلامة والبقاء!

احمد حسن الزيات

تجـــديد الاسلام

رسالة الأزهر فى القرن العشرين[١]

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

(الأزهر) ، هذه هى الـكلمةُ التى لا يقابلها فى خيال الأمة المصرية إلا كلمةُ (الهرم) . وفى كلتا اللفظتين يكمن سرٌّ خفىٌّ من أسرار التاريخ التى تجعل بعضَ الـكلمات ميراثاً عقلياً للأمة ، يُنْسِيى مادة اللغة فيها ، ولا يُبقى منها إلا مادةَ النفس ، إذ تـكون هذه الـكلمات تعبيراً عن شىء ثابت ثبات الفـكرة التى لا تتغير ، مستقرٍّ فى الروح القومية استقرارَه فى الزمن ، متجسم من معناه كأن الطبيعة قد أفردته بمادته دون ما يشاركه فى هذه المادة ؛ فالحجرُ فى الهرم الأكبر يكاد يكون فى العقل زماناً لا حجراً ، وفناً لا جسماً ؛ والمـكانُ فى الأزهر يغيب فيه معنى المـكان ، وينقلب إلى قوة عقلية ساحرة ، توجـد فى المنظور غير المنظور

وعندى أن الأزهر فى زمننا هذا يكاد يكون تفسيراً جديداً للحديث : « مصر كنانة الله فى أرضه » ، فطلبته اليوم أسهم نافذة من أسهم الله يرمى بها من أراد دينَه بالسوء فيُمسكها للهيبة ويرمى بها للنصر ، ويجب أن يكون هذا المعنى أولَ معانيهم فى هذا القرن العشرين الذى ابتلى بعلم عشرين قرناً من الجرأة على الأديان وإهمالها والالحاد فيها

أول شىء فى رسالة الأزهر فى القرن العشرين ، أن يكون أهلُه قوة إلـهية معدَّة للنصر ، مهيأة للنضال ، مسددة للاصابة ، مقدرة فى طبيعتها أحسن تقـدير ؛ تُشعر الناس بالاطمئنان إلى عملها ، وتوحى إلى كل من يراها الايمانَ الثابت بمعناها ؛ ولن يأتى لهم هـذا إلا إذا انقلبوا إلى طبيعتهم الصحيحة ، فلا يكون العلم تحرفاً ولا مهنة ولا مكسبة ، ولا يكون فى أوراق الـكتب خيال (أوراق البنك) . . . . بل تظهر فيهم العظمة الروحانية آمرة ناهية فى المادة لا مأمورة منهية بها ، ويرتفع كل منهم بنفسـه ، فيكون مقرر خُـلُق فى الحياة قبل أن يكون معلم علم فى الحياة ، لينبث منهم مغناطيسُ النبوة يجذب النفوس بهم أقوى مما تجذبها ضلالات العصر ؛ فما يحتاج الناس فى هذا الزمن إلى العالم — وإن الـكتب والعلوم لتملأ الدنيا ـ وإنما يحتاجون إلى ضمير العالم

وقد عجزت المدنية أن توجد هذا الضمير ، مع أن الاسلام فى حقيقته ليس شيئاً إلا قانون هـذا الضمير ، إذ هو دين قائم على أن الله لا ينظر من الانسان إلى صورته ولـكن إلى عمله ؛ فأول ما ينبغى أن يحمله الأزهر من رسالته ضمائر أهله

والناسُ خاضعون للمادة بقانون حياتهم ، وبقانون آخر هو قانون القرن العشرين ... فهم من ثَمَّ فى أشد الحاجة إلى أن يجـدوا بينهم التسلط على المادة بقانون حياته ليروا بأعينهم القوى الدنيئة مغلوبة ، ثم ليجدوا فى هذا الانسان أساس القدوة والاحتذاء فيتصلوا منه بقوتين : قوة التعلم وقوة التحويل . هذا هو سر الاسلام الأول الذى نفذ به من أمة الى أمة ولم يقم له شىء يصده اذ كان ينفذ فى الطبيعة الانسانية نفسها

***

ومن أخص واجبات الأزهر فى هـذا القرن العشرين أن يعمل أول شىء لاقرار معنى الاسـلام الصحيح فى المسلمين أنفسهم ، فان أكثرهم اليوم قد أصبحوا مسلمين بالنَّسب لا غير . . . وما منهم إلا من هو فى حاجة إلى تجديد الاسلام . والحكومات الاسلامية عاجزة فى هذا بل هى من أسباب هـذا الشر ، لأن لها وجوداً سياسياً ووجوداً مدنياً . أما الأزهر فهو وحده الذى يصلح لاتمام نقص الحكومة فى هـذا الباب ؛ وهو وحـده الذى يسمُه ما تعجز عنه ؛ وأسبابُ نجاحه مهيأة ثابتة إذ كان له بقوة التاريخ حكم الزَّعامة الاسلامية ، وكانت فيه عنـد المسلمين بقيةُ الوحى على الأرض ، ثم كان هو صورة المزاج النفسى الاسلامى المحض . بَيْدَ أنه فرَّط فى واجب هذه الزعامة وفقد القوة التى كان يحكم بها وهى قوة المثل الأعلى التى كانت تجعل الرجلَ من علمائه كما قلنا مرة : إنساناً تتخيره المعانى السامية تظهر فيه بأسلوب عملى فيكون فى قومه ضرباً من التربية والتعليم بقاعدة مُنتزَعة من مثالها مشروحة بهـذا المثال نفسـه . والمقيدةُ فى سواد الناس بغير هذا المثل الأعلى

---

(١) لم نتكلم فى هـذه المقالة عن اللغة والأدب وتحصيل علوم الأزهر لأن هذه هى مادة الأزهر لا رسالته الجديدة فى رأينا

هى أول مغلوب فى صراع قوى الحياة

لقد اعتاد المسلمون من قديم أن يجعلوا أبصارهم إلى علماء الأزهر فيتّبعونهم ويتأسّون بهم ويمنحونهم الطاعة وينزلون على حكمهم ويلتمسون فى سيرتهم التفسير لمشكلات النفس، ويعرفون بهم معنى صغر الدنيا ومعنى كبر الأعمال العظيمة؛ وكان غنى العالم الدينى شيئاً غير المال بل شيئاً أعظم من المال إذ كان — يجد حقيقة الغنى فى إجلال الناس لفقره كأنه ملك لا فقر. وكان زهده قوة حاكمة فيها الصلابة والشدة والهيبة والسمو وفيها كل سلطان الخير والشر لأن فيها كل النزعات الاستقلالية؛ ويكاد الزهد الصحيح يكون هو وحده القوة التى تجعل علماء الدين حقائق مؤثرة عاملة فى حياة الناس أغنيائهم وفقرائهم، لا حقائق متروكة لنفسها يوحش الناس منها أنها متروكة لنفسها

***

وعلماء الأزهر فى الحقيقة هم قوانين نفسية نافذة على الشعب، وعملهم أردّ على الناس من قوانين الحكومة، بل هم التصحيح لهذه القوانين إذا جرت الأمور على عللها وأسبابها؛ فيجب عليهم أن يحققوا وجودهم وأن يتناولوا الأمة من ناحية قلوبها وأرواحها، وأن يعدّوا تلاميذهم فى الأزهر كما يعدون القوانين الدقيقة لا طلاباً يرتزقون بالعلم

أين صوت الأزهر وعمله فى هذه الحياة المائجة بما فى السطح وما فى القاع ... وأين وحى هذه القوة التى ميثاقها أن تجعل النبوة كأنها شىء واقع فى الحياة المصرية لا خبر تاريخى فيها . ؟

لقد أصبح إيمان المسلمين كأنه عادة الايمان لا الايمان نفسه، ورجع الاسلام فى كتبه الفقهية وكأنه أديان مختلفة متناقضة لا دين واحد. فرسالة الأزهر أن يجدد عمل النبوة فى الشعب، وأن ينفى عمل التاريخ فى الكتب، وأن يبطل عمل الوثنية فى العادات، وأن يعطى الأمة دينها الواضح السمح الميسر وقانونها العملى الذى فيه سعادتها وقوتها

ولا وسيلة إلى ذلك إلا أن يكون الأزهر جريئاً فى قيادة الحركة الروحية الاسلامية، جريئاً فى عمله لهذه القيادة، آخذاً بأسباب هذا العمل، ملحاً فى طلب هذه الأسباب، مصرّاً على هذا الطلب. وكل هذا يكون عبثاً إن لم يكن رجال الأزهر وطلبته أمثلة من الأمثلة القوية فى الدين والخلق والصلابة لتبدأ الحالة النفسية فيهم، فانها إن بدأت لا تقف؛ والمثل الأعلى حاكم بطبيعته على الانسانية، مطاع بحكمه فيها، محبوب بطاعتها له

والمادة المطهِّرة للدين والأخلاق لا تجدها الأمة إلا فى الأزهر، فعلى الأزهر أن يثبت أن فيه تلك المادة باظهار عملها لا بالصاق الورقة المكتوب فيها الاسم على الزجاجة ...

ومن ثم يكون واجب الأزهر أن يطلب الاشراف على التعليم الاسلامى فى المدارس وأن يدفع الحركة الدينية دفعاً بوسائل مختلفة؛ أولها أن يحمل وزارة المعارف على إقامة فرض الصلاة فى جميع مدارسها، من مدرسة حرية الفكر .. فنازلاً؛ والأمة الاسلامية كلها تشد رأى الأزهر فى هذا . وإذا نحن استخرجنا التفسير العملى لهذه الآية الكريمة : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » دلّتنا الآية بنفسها على كل تلك الوسائل، فما الحكمة هنا إلا السياسة الاجتماعية فى العمل، وليست الموعظة الحسنة إلا الطريقة النفسية فى الدعوة

العلماء ورثة الأنبياء؛ وليس النبى من الأنبياء إلا تاريخ شدائد ومحن، ومجاهدة فى هداية الناس، ومراغمة للوجود الفاسد، ومكابدة التصحيح للحالة النفسية للأمة. فهذا كله هو الذى يورث عن الأنبياء لا العلم وتعليمه فقط

***

وإذا قامت رسالة الأزهر على هذه الحقائق، وأصبح وجوده هو المعنى المتمم للحكومة المعاون لها فى ضبط الحياة النفسية للشعب وحياطتها وأمنها ورفاهتها واستقرارها — اتجهت طبيعته إلى أداء رسالته الكبرى للقرن العشرين بعد أن يكون قد حقق الذرائع الى هذه الرسالة من فتح باب الاجتهاد وتنقية التاريخ الفقهى وتهذيب الروح الاسلامى والسمو به عن المعانى الكلامية الجدلية السخيفة، ثم استخراج أسرار القرآن الكريم المكتنة فيه لهذه العصور العلمية الأخيرة؛ وبعد أن يكون قد اجتمعت فيه القوة التى تمسك الاسلام على سنته بين القديم والجديد، لا ينكره هذا ولا يغيره ذاك؛ وبعد أن يكون الأزهر قد استفاض على العالم العربى بكتبه ودعاته ومبعوثيه من حاملى علمه ورسل إلهامه

أما تلك الرسالة الكبرى فهى بث الدعوة الاسلامية فى أوربا وأمريكا واليابان ، بلغات الأوربيين والأمريكيين واليابانيين فى ألسنة أزهرية مرهفة مصقولة لها بيانُ الأدب ودقةُ العلم واحاطةُ الفلسفة ، وإلهامُ الشعر ، وبصيرةُ الحكمة ، وقدرةُ السياسة ؛ ألسنة أزهرية لا يوجد الآن منها لسانٌ واحد فى الأزهر ، ولكنها لن توجد إلا فى الأزهر ؛ ولا قيمة لرسالته فى القرن العشرين إذا هو لم يوجدها فتكون المتكلمة عنه والحاملة لرسالته . وما هذه البعثات التى قرر الأزهر ابتعاثها إلى أوربا إلا أول تاريخ تلك الألسنة

إن الوسيلة التى نشرت الاسلام من قبل لم تكن أجنحة الملائكة ولا كانت قوة من جهنم ؛ ولا تزال هى هى التى تنشره ، فليس مستحيلا ولا متعذرا أن يغزو هذا الدين أوربا وأمريكا واليابان كما غزا العالم القديم . ولم يكن السلاح من قبل إلا طريقة لإيجاد الاسلام فى الأمة الغريبة عنه حتى إذا وُجد تولىّ هو الدعوةَ لنفسه بقوة الناموس الطبيعى القائم على أن الأصلح هو الأبقى ، وانحازت اليه الانسانية لأنه قانونُ طبيعتها السليمة ، ودين فطرتها القوية ، وقد ظل الاسلام ينتشر ولم يكن يحمله إلا التاجر كما كان ينتشر وحاملهُ الجيش ؛ فليس علينا إلا تغيير السلاح فى هذا العصر وجعله سلاحا من فلسفة الدين وأسرار حكمته . فهذا الدين كما قلنا فى بعض كلامنا أعمالٌ مفصّلة على النفس أدق تفصيل وأوفاه بمصلحتها ، فهو يعطى الحياة فى كل عصر عقلَها العَمَلى الثابت المستقر تنظّم به أحوال النفس على ميزة وبصيرة ، ويدعُ للحياة عقلها العملىَّ المتجدد المتغير تنظم به أحوال الطبيعة على قصد وهدى . وهذه هى حقيقة الاسلام فى أخص معانيه لا يغنى عنه فى ذلك دين آخر ولا يؤدى تأديته فى هذه الحاجة أدبٌ ولا علم ولا فلسفة كأنما هو نبع فى الأرض لمعانى النور بازاء الشمس نبع النور فى السماء

ليس على الأزهر إلا أن يوجد من الاسلام فى تلك الأمم ما يستمر ، ثم الاستمرار هو يوجد ما يثبت ، والثبات يوجد ما يدوم . وكأن النبى صلى الله عليه وسلم قد أشار إلى هذا فى قوله: نضّر الله امرءا سمع منى شيئاً فبلّغه كما سمعه ، فربّ مُبلّغ أوعى له من سامع

أما والله إن هذا المبلّغ الذى هو أوعى له من السامع لن يكون فى التاريخ بأدق المعنى إلا أوربا وأمريكا فى هذا الزمن العلمى إذا نحن عرفنا كيف نبلغ

أنا مستيقن أن فيلسوف الاسلام الذى سينتشر الدين على يده فى أوربا وأمريكا لن يخرج إلا من الأزهر ، وما كان الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله إلا أول التطور المنتهى إلى هذه الغاية ، وسيكون عمل فلاسفة الأزهر استخراج قانون السعادة لتلك الأمم من آداب الاسلام وأعماله ثم مخاطبة الأمم بأفكارها وعواطفها والافضاء من ذلك إلى ضميرها الاجتماعى فإن أول الدين هناك أسلوبه الذى يظهر به

* * *

هذه هى رسالة الأزهر فى القرن العشرين ويجب أن يتحقق بوسائلها من الآن ؛ ومن وسائلها أن يمالىء بها لتكون مؤتَفَاً عليه . ويحسن بالأزهر فى سبيل ذلك أن يضم إليه كل مفكر إسلامى ذى إلهام أو بحث دقيق أو إحاطة شاملة ؛ فتكون له ألقاب علمية يمنحهم إياها وإن لم يتخرجوا فيه ثم يستعين بعلمهم وإلهامهم وآرائهم . وبهذه الألقاب عند الأزهر إلى حدود فكرية بعيدة ويصبح أوسع فى أثره على الحياة الاسلامية ويحقق لنفسه المعنى الجامعى

وفى تلك السبيل يجب على الأزهر أن يختار أياماً فى كل سنة يجمع فيها من المسلمين (قرش الاسلام) ليجد مادة النفقة الواسعة فى نشر دين الله . وليس على الأرض مسلم ولا مسلمة لا يبسط يده ، فما يحتاج هذا التدبير لأكثر من إقراره وتنظيمه وإعلانه فى الامم الاسلامية ومواسمها الكبرى وخاصة موسم الحج . وهذا العمل هو نفسه وسيلة من أقوى الوسائل فى تنبيه الشعور الاسلامى وتحقيق المعاونة فى نشر الدين وحياطته ، وعسى أن تكون له نتائج اجتماعية لا موضع لتفصيلها ، وعسى أن يكون (قرش الاسلام) مادة لأعمال إسلامية ذات بال وهو على أى الأحوال صلة روحية تجعل الأزهر كأنه معطيه لكل مسلم لا آخذه .

والخلاصة أن أول رسالة الأزهر فى القرن العشرين اهتداء الأزهر إلى حقيقة موضعه فى القرن العشرين « وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى المؤمنين » .

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

النهضات القومية العامة*

فى أوربا وفى الشرق

للدكتور عبد الرزاق السنهورى

عميد كلية الحقوق ببغداد

تمهيد:

دعتنى لجنة الثقافة بدار المعلمين لالقاء محاضرات عامة ، فترددت فى اختيار موضوع هذه المحاضرات ، ذلك أنى رجل أشتغل بالقانون ، والناس لا يرحبون كثيراً لا بالقانون ولا برجال القانون ، وكيف يستسيغ الناس القانون ، وهو جاف لا طلاوة فيه ، أو ترحب برجال القانون ، وهم رجال صناعتهم الخوض فى المنازعات ، فان لم توجد خلقوها خلقا ؟ هذه هى سمعة رجال القانون عند الجمهور ، ولا أحاول أن أدافع عنهم ، وإن كنت منهم ، فانى أخشى أن ينازعون حق النيابة عنهم والتحدث باسمهم . لذلك آثرت أن أتجرد الليلة عن هذه الصفة ، وأن أتقدم اليكم بموضوع لا شأن له بالقانون ، واخترت أن يكون موضوعى عن النهضات القومية فى أوربا وفى الشرق

ولست أزعم أننى توفرت على دراسة موضوعى دراسة دقيقة ، فان الدراسة الحق لهذا الموضوع تقتضى الخوض فى فلسفة التاريخ والاجتماع ، مما أعفيكم منه ، كما أعفيكم من سماع الأحاديث القانونية الجافة . لذلك ستروننى هذه الليلة أمس موضوعى مساً خفيفاً ، فى رفق وهوادة ، محاذرا أن أثقل عليكم أو أن أثقل على نفسى ، راجياً العذر إذا قصرت فى التعمق ، فان الغرض الأول الذى توخيته من هذه المحاضرات ، ليس هو الغرض العلمى . بل هى الرغبة فى استخلاص بعض الدروس للشعوب الشرقية فى نهضاتها الحديثة ، فى ضوء التجارب التى مرت بها الأمم الغربية

وما دمت سأتكلم فى النهضات القومية ، وما دامت النهضة تقوم على روابط ، فانى أبدأ بتحديد معنى الرابطة ، تمهيداً للكلام فى النهضات القومية

الرابطة وحدة تجمع طائفة من الناس ، وتقرب ما بينهم ، وتميزهم من الطوائف الأخرى ، فالرابطة إذن لها وجهان : وجه إيجابى ، هو ذلك التقريب ، وكلما توثقت أواصره كان فى ذلك الخير كله . ووجه سلبى ، هو ذلك التنافر والتباعد ما بين طائفة وأخرى ، وكلما أغرق فيه كان تعصباً ، والتعصب كريه مذموم

ولا بد من وجود الروابط فى الجمعيات البشرية ، وتفرق الناس شيعاً وأحزاباً . نعم لو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة ، ولكانت هناك رابطة واحدة تربط الناس جميعاً ، هى رابطة الانسانية ، ولكن ذلك المثل العالى لم يتحقق حتى الآن ، وقد لا يتحقق إلى مدة طويلة ، بل قد لا يتحقق أبداً ، لذلك يجب أن نواجه الأمر الواقع ، وأن ننظر على أى أساس يتميز الناس أمماً وشعوباً

ولنبدأ باستعراض التاريخ استعراضاً سريعاً ، لنستخلص منه الروابط المتعاقبة التى ربطت الجمعيات البشرية فى أوربا ، منذ العصور الوسطى إلى الآن . إن المستعرض لتاريخ الغرب يستطيع أن يقرر أن الجمعيات البشرية قد تقاربت وتباعدت ، على أسس اختلفت باختلاف مراحل التاريخ . ففى العصور الوسطى كان الأساس هو الدين ، إذ تجمعت الشعوب الغربية وقامت وحدتها على الدين المسيحى ، ثم أخذت رابطة الدين تنحل شيئاً فشيئاً ، وأخذت تحل محلها رابطة الوطن ، وما زالت أواصر الوطنية تتماسك ، ثم تتوثق ، حتى قوى التعصب لها ، وحتى قامت الحروب ما بين الشعوب المختلفة فى الوطن وان اتحدت فى الجنس ، وبقى الأمر كذلك حتى مستهل القرن التاسع عشر ، إذ قويت رابطة الوطن بعد نشوب الثورة الفرنسية وحروب نابليون ، ثم أخذت رابطة أخرى فى الظهور ، رابطة تقوم لا على فكرة الوطن ولا على فكرة الجنس ، بل على فكرة الكفاح ما بين الطبقات ، ووجوب سيادة طبقة العمال ، وبهذه الرابطة نادى الاشتراكيون ، وأخذ أمر الاشتراكية يقوى شيئاً فشيئاً ، ومذاهبها تتنوع وتتشعب ، حتى الحرب الكبرى ، إذ استفحل شأن الاشتراكية بارتماء الروسيا فى أحضان البلشفية .

* المحاضرة الاولى من سلسلة المحاضرات التى ألقاها الأستاذ السنهورى فى مدينة بغداد فى بهو أمانة العاصمة فى ٢٣ مارس سنة ١٩٣٦

على أن رابطة الوطن ، وقد وقفت إلى جانبها رابطة أخرى مقاربة لها هي رابطة الجنس ، لم يفتر نشاطها ، بل نزلت إلى ميدان النضال . وها نحن اليوم نشهد عراكا عنيفاً ما بين رابطتي الوطن والجنس من جهـة ، ورابطة الطبقات من جهة أخرى

هذا بيان اجمالى عن الروابط التى تعاقبت على أوربا منذ العصور الوسطى إلى اليوم : من رابطة الدين ، إلى رابطة الوطن ، إلى رابطة الجنس ، إلى رابطة الطبقات ، ونحن نفصـل الآن ما أجملناه

١ — العصور الوسطى : رابطة الدين

قلت إن الشعوب الأوربيـة كانت تجمعها فى العصور الوسطى جامعة الدين ، وكانت الدولة لا تقوم على القوميـة أو الوطنية فى تلك العصور ، بل كانت الدولة والقومية منفصلتين إحداهما عن الأخرى منـذ العصور القديمة ، فقد كانت اليونان قومية واحدة تتنازعها دول متعددة ، وكانت الرومان قوميات متعددة تندمج فى دولة واحدة . ولما جاءت العصور الوسطى تجمعت الشعوب الأوربية فى ظل الدين المسيحى ، يقود زمامها سلطانان : سلطة روحية هى سلطة البابا ، وسلطة زمنية هى سلطة الأمبراطور . واستندت الـكنيسة إلى السلطة الزمنيـة دهوراً طوالا ، فان المسيحية كان قد اشتد كاهلها فى ظل الامبراطورية الرومانية ، إذ بعد أن ناوأتها هـذه الامبراطورية زمناً طويلا ، واضطهدت معتنقيها ، وسامتهم الخسف والعذاب ، تغلبت قوة الايمان ، وانتصرت المسيحية ، واتخذتها الأمبراطورية الشرقية ديناً رسمياً للدولة

ولما سقطت الأمبراطورية الرومانيـة شعرت الـكنيسة بحاجتها إلى سلطة زمنية تستند اليها ، و فى المثل الأعلى للشعوب الغربية هو أن تتجمع فى ظل الـكنيسة . وقد تحققت هذه الأمنية إلى حد كبير فى آخر القرن الثامن ، وقام بتحقيقها شارلمان ، فقد وحد غرب أوربا بعد أن أخضعها لسلطانه ، وتوجه البابا ليو الثالث فى سنة ٨٠٠ فى كنيسة القديس بطرس ، امبراطورا على العالم المسيحى ، وخليفة للقياصرة من الرومان ، وأعاد الأمبراطور أوتو الجرمانى وحدة العالم المسيحى مرة أخرى فى القرن العاشر ، أما الـكنيسة نفسها فقد كان ظلها ينبسط على العالم المسيحى ، يحقق وحدة هذا العالم ، وقد كان لها أعوان منبثون فى كل قطر وبلد ، يؤيدون سلطانها ، وينفذون ارادتها ، وسلاح الـكنيسة إذ ذاك هو الغفران والحرمان ، تغفر لمن تشاء ، وتحرم من تشاء ، فكلمتها نافذة مطاعة ، والعالم المسيحى ينظر اليها رمزاً لوحدته

وبقيت الرابطة الدينية قوية متينة دهوراً طوالا ، ثم أخذت فى الانحلال ، ويرجع السبب فى انحلالها إلى الحروب الطويلة التى نشبت ما بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية ، وإلى اتصال العالم المسيحى بالعالم الاسلامى بعد انقضاء الحروب الصليبية ، مما خفف من حدة التعصب الدينى ، وإلى الاصلاح الدينى الذى كان من شأنه أن يشق العالم المسيحى إلى كثلكة وبروتستانتية ، وأخيراً ، وبنوع خاص إلى عصر النهضة فى العلوم والفلسفة ، تلك النهضة التى افتتحت بها العصور الحديثـة فى أوربا ، فبدد نور العلم ما كان قد تلبد من غياهب التعصب ، وانقشعت ظلمات الجهالة ، وميز الناس بين الروابط المدنيـة والروابط الدينية ، فحكموا فى الأولى عقولهم ، وفى الأخرى ضمائرهم ، وأعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله .

٢ — العصور الحديثة : رابطة الوطن ورابطة الجنس

وننتقل الآن من المرحلة الأولى إلى المرحلة الثانيـة ، من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة ، وقد بدأت هذه العصور فى أوربا منذ القرن السادس عشر ، وبدأت معها رابطة الوطن تحل محل رابطة الدين ، وقد كان يمنع من توثق رابطة الوطن فى الماضى أمران : (الأمر الأول) رابطة الدين وقد رأينا كيف تفككت هذه الرابطة . (الأمر الثانى) شيوع النظام الاقطاعى فى الشعوب الأوروبية ، وقد كان من شأن هذا النظام أن يفكك سلطان الدولة ، وأن يوزعه بين النبلاء ، فلم تكن تقوم للدولة ولا للقومية قائمة فى ظل هذا النظام . ثم أخذ يزول شيئاً فشيئاً ، ويرجع السبب فى ذلك إلى تقدم التجارة والصناعة ؛ مما جعل طبقة التجار والصناع وهى الطبقة الوسطى ذات شأن كبير . فأضعفت من سلطان الأرستقراطية والنبلاء ، وحلت البرجوازية التجارية والصناعية محل الأرستقراطية النبيلة ، واستندت اليها

السلطة الـ ... ، واستعانت بها فى توطيد سلطانها وهدم سلـ...

وعرس تقدم التجارة والصناعة عند الأمم الغربية حب الاستعمار سعياً وراء أسواق جديدة للتجارة ، أو جرياً وراء الحصول على المواد الأولى للصناعة ، وقويت نزعة الاستعمار عند الدول الغربية الكبرى ، وتنافست ، فقامت الحروب بينها ، وزادت كل أمة شعوراً بقوميتها ، وهكذا نرى أن الاستعمار كان من شأنه أن يقوى الوطنية ، وأن يذكى نار التعصب للقومية

وقد بلغت رابطة الوطنية أوجها من القوة بعد نشوب الثورة الفرنسية وحروب نابليون ، وبقيت قوية عنيفة طوال القرن التاسع عشر ، رغماً عن حركة الرجعية التى رفع لواءها مؤتمر فينا . وأخذت القوميات التى لم تستكمل استقلالها تكافح فى سبيل هذا الاستقلال ، وخرجت منتصرة من هذا الكفاح . فاستقلت اليونان عن الدولة العثمانية ، والبلجيك عن هولندا ، وإيطاليا عن النمسا ، وأخفقت بولونيا والمجر ، ولم يقدر لهما النجاح إلا بعد الحرب الكبرى ، واستقلت بعض ولايات البلقان ، وتكونت الامبراطورية الألمانية ، بعد أن اصطدمت القومية الألمانية بالقومية الفرنسية ، وجر هذا الاصطدام إلى حروب دامية وأهوال

على أن تقدم الصناعة بنوع خاص ، لاسيا فى القرن التاسع عشر ، كان له أثران خطيران غير تقوية روح الوطنية والنزعة الاستعمارية . (الأثر الأول) تقويته روح الديمقراطية ، التى بدأ غرسها الثورة الانجليزية ، وأنبتتها الثورتان الأمريكية والفرنسية . وللديمقراطية حديث طويل ، يصح أن يكون موضوعاً مستقلاً لسلسلة أخرى من المحاضرات . (الأثر الثانى) غرسه روح الاشتراكية ، وهنا نرى عجباً . فان الصناعة ، التى قوت رابطة الوطنية ، أوجدت إلى جانبها رابطة أخرى مناقضة لها كل المناقضة ، هى رابطة الطبقات . إذ قويت طبقة العمال بفضل تقدم الصناعة الكبير ، وأخذت تشعر بقوتها ، وتجمعت كتلاً كتلاً ، وسرى روح التفاهم ما بين العمال من جميع القوميات ، وصاح فيهم ماركس صيحته المشهورة : « أيها العمال من جميع أنحاء العالم ، هلموا إلى رفع لواء الاتحاد » ، وعارضت روح الطبقات روح الوطنية ، وبدأت الاشتراكية تدخل فى دور عملى ، ولم يعد بد للأمم الأوربية من أن تواجه هذه الحركة الجديدة

وقبل أن ننتقل من الوطنية إلى الاشتراكية ، نقف قليلا ، لنعرف معنى الوطنية التى أكثرنا من الاشارة اليها ، فقد تحاشينا تعريفها حتى الآن ، إذ ليس من السهل تحديد هذا المعنى الدقيق ، فالوطنية جامعة تقوم على روابط طبيعية وأخرى صناعية ، وأول الروابط الطبيعية هو وحدة الجنس والدم ، ويلى هذا وحدة الأقليم الجغرافى ، ثم وحدة اللغة ، ويترتب على هذه الوحدات المختلفة وحدة التاريخ ووحدة التقاليد ، هذه هى الروابط الطبيعية التى تجمع ما بين أبناء شعب واحد ، وتجعل من هذا الشعب وطناً يشعر بذاته . فاذا اقترنت بهذه الروابط الطبيعية رابطة أخرى صناعية ، هى وحدة النظام السياسى ، فقد استكملت الوطنية ذاتيتها ، واستجمعت مقوماتها ومشخصاتها ، وإذا انضم إلى كل هذه الروابط وحدة الدين ، فقد بلغت الوطنية الأوج من عنفوانها وقوتها . على أن اجتماع كل هذه الروابط ليس ضرورياً لتكوين الوطن ، فوجود بعضها يكفى . والمهم أن يتوحد المكان الجغرافى والنظام السياسى ، ويتبع ذلك وحدة التاريخ ووحدة التقاليد . فقد تضم رقعة جغرافية قوماً مختلفى الجنس ، ولكن يتحد تاريخهم وتقاليدهم ، فاذا انضموا إلى نظام سياسى واحد كونوا وطناً ، وقد يتفرق أبناء الجنس الواحد بين أوطان متعددة ، كل وطن له مقوماته الذاتية من لغة وتاريخ وتقاليد ، وقد يتجمع القوم متحدين جنساً مختلفين ديناً ، ولا يمنع اختلاف الدين من تكون الوطن ، ومن هنا نرى أن رابطة الوطن لا تتفق تماماً مع رابطة الجنس والدم . فالرابطة الأولى فيها شىء من العوامل الصناعية تعززها وتقويها ، والرابطة الثانية ، رابطة الدم ، تقوم على الطبيعة ذاتها ، ولا تعارض بين رابطة الوطن ورابطة الجنس والدم ، حتى لو ضم الوطن الواحد أجناساً مختلفة . إلا إذا أسىء فهم الوطنية ، وأخذت لا على أنها صلة حب وتآلف بين هذه الأجناس ، بل صلة كراهية ومقت لكل قومية أخرى

(يتبع) عبد الرزاق السنهورى

صور من القرن الثامن عشر

جاكومو كازانوڤا

مغامر مجتمع ومغامر مرح

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان القرن الثامن عشر فى أوربا عصر الخفاء والدعوات السرية ، والثورات الفكرية والاجتماعية ؛ وكان أيضاً عصر المغامرات الشائقة ، والحياة المرسلة الناعمة ، والعيش الخفض ، وازدراء التبعات ، عصر المرح والطرب الميسور

وليس معنى ذلك أن القرن الثامن عشر كان عصراً ذهبياً يزهو فيه المجتمع ويزدهر ؛ فقد كان فى الواقع عصر الأزمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية المتوالية ؛ ولكنه كان عصر تطور فكرى عميق يبلغ المجتمع فيه ذروة أزمته الروحية والنفسية ، ويصل الى نوع من اليأس والاستهتار ، ويلتمس فى حياة النسيان والعيش المرح عزاء ومتنفسا

وقد تناولنا فى مقال سابق شخصية من أعجب شخصيات هذا القرن وداعية من أغرب دعاته ، ونعنى يعقوب فرنك أو البارون فون أوفنباخ [1] ورأينا كيف كان القرن الثامن عشر مهبط الدعاة والمغامرين من كل ضرب ، وكيف كان الخفاء يغمرهم ويثير من حولهم كثيراً من الدهشة والروع ، وكيف كان أولئك الدعاة المغامرون يخلبون ألباب مجتمعات هذا العصر برائع شخصياتهم ومظاهرهم ، وظرف خلالهم وشمائلهم ، وسحر مزاعمهم وأقوالهم ، وخفاء غاياتهم ووسائلهم

والآن نتناول شخصية أخرى من أعجب شخصيات هذا القرن أيضاً ، ولكن من طراز آخر ، هى شخصية جاكومو كازانوڤا

كازانوڤا ! مغامر جرىء يخلق لنفسه من العدم شخصية باهرة ، ويدخل الحياة من باب ذهبى ، ويستقبلها بابتسامة خالدة ؛ ويفتتح المجتمع الرفيع بذكائه ودهائه وخبثه ، وظرف خلاله وشمائله ؛ ويرتفع فى ميدان المغامرة الى الذروة ، ويهبط الى الدرك الأسفل ؛ ويستمرىء أمتع المسرات والملاذ ، كما يتذوق أمر ضروب السقوط والفاقة ؛ وينحدر من فتوة باهرة ظافرة برفاهة العيش الساطع المرح ، الى كهولة حافلة بصنوف الخيبة واليأس ، ثم الى شيخوخة مظلمة مغمورة بائسة ، ثم الى عالم العدم فى قبر ناء مجهول

لم يكن كازانوڤا شخصية عظيمة تجدر بالخلود فى صحف التاريخ ؛ ولكنه كان شخصية من نوع خاص تنحرف بطرافتها وغريب أطوارها عن سلك المجتمع الوديع الهادىء ، ولكن تنفث فى نفس الوقت بقوتها واضطرام خلالها أينما حلت فى جوانب هذا المجتمع كثيراً من الفضول والسحر ، وتغزو بمرحها وأناقتها قلوب أولئك الذين يعبدون الجمال والظرف مهما اتخذوا من أثواب خلابة طائرة ؛ وقد كان كازانوڤا يتشح بأثواب خلابة طائرة ، ولكن مؤثرة ساحرة ، ولم يكن يهمه فى الحياة سوى النجاح مهما كان خلباً ، والظفر بتحقيق أهوائه مهما كانت ومهما كانت الوسائل والصور ؛ وقد ترك لنا فوق ذلك عن حياته الغريبة الحافلة مذكرات طلية شائقة ما زالت تعتبر الى يومنا تحفة أدبية فنية لها قيمتها ولها سحرها

ولهذا يظفر كازانوڤا من التاريخ بالذكر والتدوين ، وتغدو سيرته العجيبة سجلا حافلا لخلال عصره ، وتغدو موضوعاً ومستقى لأقلام بارعة تخرج عنها المؤلفات الحافلة

***

ولد جاكومو كازانوڤا فى الثانى من شهر أبريل سنة ١٧٢٥ بمدينة البندقية ؛ وكان أبوه جايتانو ممثلا متواضعاً أتى به الى البندقية والى المسرح قدر غريب ، ذلك أنه هام فى صباه بممثلة حسناء تدعى لافراجوليتا ، وترك من أجلها أسرته وموطنه بارما ، واحترف الرقص والتمثيل ؛ ثم فترهواها بعد ذلك وتركته الممثلة لتجرى وراء مغامرات أخرى ، فاستقى من بعدها حرفته ، والتحق للعمل بأحد مسارح البندقية ؛ وكان يقيم فى المنزل المواجه لمسكنه صانع أحذية يدعى فاروزى وزوجته مارسيا وابنتهما الحسناء چوفانا أو زانيتا ، فنشأت بين جايتانو وزانيتا

(١) راجع العدد ١٤١ من الرسالة

علاء ، ثم فر العاشقان ذات يوم وعقدا زواجهما فى سنة ١٧٢٤ ، وبعد عام ولد ابنهما چا كومو

ولم تلبث زانيتا أن حملها تيار المسرح ، فظهرت الى جانب زوجها ، وانفق الزوجان بضعة أعوام فى التجول من مدينة الى أخرى ومن مسرح الى آخر ؛ ثم أصيب الزوج أثناء وجودهما بالبندقية بمرض خطير أودى بحياته فى أواخر سنة ١٧٣٣

وكان جايتانو كازانوفا فتى وديعا حسن الخلال ، يؤثر الانزواء والعزلة ؛ أما زانيتا فقد كانت بالعكس فتاة ذكية ماكرة مضطرمة النفس والأهواء ؛ وكانت ممثلة بارعة تتمتع بكثير من الظرف والسحر ؛ وكانت دائمة التجول فى عواصم القارة ، من لندن الى بطرسبرج ، تحرز النجاح والظفر أينما حلت ؛ وكان مستقرها الأخير فى مدينة درسدن حيث عينها مختار سكسونية ممثلة مدى الحياة ، وهنالك أنفقت بقية حياتها حتى توفيت سنة ١٧٧٦

وكانت زانيتا قد رزقت غير چا كومو بثلاثة أبناء آخرين وابنتين ، وتركتهم جميعاً بالبندقية لدى والدتها مارسيا فاروزى ؛ وكانت مارسيا امرأة بسيطة جاهلة ولكن ذكية مخلصة ، فكرست كل نشاطها وعنايتها لتربية أحفادها ولاسيما كبيرهم چا كومو ؛ ويشير كازانوفا فى مذكراته إلى ذلك الحرمان من عطف أبويه ، ويقول لنا إنهما لم يكلماه قط ، ويشير أيضاً الى عطف جدته ورعايتها ويقول لنا إنه كان طوال حياته يذكرها بالحب والعرفان والاجلال

ونشأ چا كومو ضعيفاً سقيما ، ولكن تبدو عليه أمارات الذكاء والنجابة ؛ وكان للأسرة صديق من أعيان المدينة يدعى جورجو بافو ، فاهتم بأمر الصبى العليل ؛ وكان بافو جوادا طيب القلب ، ولكن فاسد الخلال والسيرة ؛ وكان شاعرا ، ولكن شعره يفيض تهتكا وفجورا ؛ فنصح بارسال الصبى الى بادوا ليتعلم فى معاهدها ويستفيد من هوائها ؛ وكانت زانيتا والدة چا كومو يومئذ فى البندقية ، فنزلت عند هذا النصح ، وحملت چا كومو الى بادوا ، ورتبت مقامه هنالك ؛ وأقام چا كومو مدى حين عند امرأة سلافية ، ولكنه ما لبث أن عاف السكن لديها لسوء المعاملة ورداءة المسكن والطعام ، ثم نقل على أثر ذلك الى منزل معلمه الأب جوزى ، فارتاحت نفسه لمقامه الجديد ، وأقام لدى أستاذه منعما مكرما

وقضى كازانوفا بضعة أعوام عند معلمه ، ودرس قليلا من اللاتينية واليونانية والنحو . وكان تقدمه سريعاً حتى أن الأب جوزى ما لبث أن اختاره لمعاونته فى التدريس ؛ وكان كازانوفا قد ناهز يومئذ الخامسة عشرة ، وأخذت تبدو عليه أمارات الاضطرام الكامنة فى جوانحه والتى ورثها عن والديه ، فبدأ يقرأ الكتب المثيرة ، ويزعج معلمه بمختلف الأسئلة المحرجة ، ويحدج أخت معلمه بتينا — وهى فتاة فى نحو العشرين من عمرها — بنظرات ملتهبة . ولما انتهت دراسته الابتدائية ، دخل مدرسة الحقوق فى جامعة بادوا الشهيرة ، وأطلق لنفسه عنان الحرية ، وأخذ يغشى دور اللهو والميسر ، فانزعج معلمه ، وانزعجت جدته وبادرت إلى بادوا وصحبته معها إلى البندقية ، وهنالك استأنف دراسته

وفى البندقية تفتحت غرائزه وأهواؤه ، وانكب على صنوف اللهو ؛ ولكنه مع ذلك كان يتذوق دراسته وحياته العلمية ، وكان ذلك الفتى اليافع الذى يضطرم ظمأ إلى اللهو والمرح ، يضطرم فى نفس الوقت ظمأ إلى العرفان والدرس ؛ وكان فى الثامنة عشرة يأخذ بقسط حسن من الأدب والفلسفة والمبادئ العلمية ، ولم يكن خلال عبثه ولهوه ليغضى عن التفكير فى مستقبله ؛ فلم يمض سوى قليل على عوده إلى البندقية حتى استطاع أن ينتظم فى سلك رجال الدين وأن يحصل على وظيفة دينية صغيرة . أجل استهل كازانوفا حياته العملية قساً ، وهو الذى خاض فيما بعد غماراً من اللهو والفجور قلما يخوضها بشر ! ولم يكن ذلك منه ورعاً أو رغبة فى خدمة الدين ، ولكن الانضواء تحت لواء الكنيسة كان يومئذ وسيلة فريدة لأبناء الشعب الذين يطمحون الى مستقبل ما ؛ وكان ذلك المنصب المتواضع الذى لا يحتم عليه الارتباط بمهد الكنيسة ، يفتح له كثيراً من الأبواب المغلقة ، ويحقق له كثيراً من المزايا التى تعاونه على التقدم فى سبيل الحياة

ولم يمض سوى قليل حتى استطاع كازانوفا أن يجوز إلى المجتمع الرفيع وأن يتعرف بكثير من الكبراء والنبلاء ؛ وكان بين هؤلاء ، غير صديقه وحاميه القديم بافو ، سيد يدعى مالبيرو وهو شيخ سابق ، وثرى منعم ، يعيش فى قصر فخم ، ويجمع حوله جمهرة من الخلان الظرفاء ، يتسامرون ويتحدثون عن اللهو

والنساء والحب ، كما يتحدثون عن السياسة والمسرح ؛ وألفى ماليبرو في القس الفتى رفيقاً مؤنساً فاصطفاه واتخذه سميره وخدله الحميم ومعاونه على تنظيم حفلاته الأنيقة ؛ وكان كازانوفا في الواقع يتمتع في هذا الميدان بكثير من حسن الذوق والشمائل الرقيقة ، فيتقدم لخدمة السيدات برشاقة ويخلب ألبابهن بظرفه ، ويسبغ بحركاته وأحاديثه على الحفل كله مسحة من البهجة والرواء

وكانت البندقية يومئذ - في منتصف القرن الثامن عشر - منزل اللهو والمرح ، تموج في الليل بالمسارح ودور اللهو ، وتغمرها لمحة ساطعة من بهائها السابق ؛ وكان الحب يرفرف على أرجائها وتنساب القوارب النحيلة (١) في شوارعها المائية تحمل أزواج المحبين تحت جنح الظلام وأضواء القمر ، وتقرع كؤوس الهوى في كل ناحية ، ويسود الحبور والبهجة ؛ وكان كازانوفا يخوض هذه الغمار المرحة سعيداً منعماً ، ويستمرئ هذه المناظر البديعة التي تقدمها إليه المدينة التالدة ، في ظل الرعاية التي يشمله بها صديقه وحاميه السيد ماليبرو

بيد أنه لم يلبث أن فقد هذه الرعاية . ذلك أنه كان للسيد ماليبرو صاحبة فتية حسناء تدعى تيريز ، وكان كازانوفا يرنو إليها ويحوم حولها ، ففي ذات يوم استطاع أن ينفرد بها في أحد المخادع ، وبينا هو يبثها جواه ، إذ فاجأهما ماليبرو فانهال عليه ضرباً بعصاه ، وطرده من منزله شر طرد ، وفقد كازانوفا بذلك أكبر عضد ، وأقصي من ذلك المجتمع الساطع الذي كان يغشاه ؛ وتولته على أثر ذلك نوبة من اليأس والكمد ؛ وكانت جدته قد توفيت قبل ذلك بقليل ، فأخذ يتصرف في مقتنيات المنزل ويبددها ، واضطر الوصي على اخوته إلى التدخل ، ووصل الأمر إلى القضاء فقبض عليه وأودع السجن ؛ وفقد أثناء ذلك منصبه الديني وأخرج من حظيرة الكنيسة ؛ ولما أطلق سراحه بعد ذلك بقليل ، شعر أن البندقية تضيق به وبعشاريعه وأنه لم يبق له فيها أمل أو مقام

وكانت أمه قد كتبت إليه توصيه بالسفر إلى أسقف كلابريا فهو صديق لها وقد وعد أن يعاونه وأن يوصي به ؛ فعول عندئذ على السفر إلى رومه ، ولكن الأسقف كان قد غادرها إلى مقر وظيفته في الجنوب ؛ وكانت نقوده القليلة قد نفدت ، وساءت حاله ، واضطر أن يلتمس العيش بأخس الوسائل ؛ وتعرف أثناء الطريق بتاجر يوناني يتاجر في الزئبق ، واتفق معه على طريقة لغش الزئبق وتحصيل ثمنه مضاعفاً ، واستطاع بهذه الوسيلة أن يكسب قدراً من المال ؛ ووصل أخيراً إلى مارتيرانو مقر الأسقف ، ولكنه شعر بآماله تتحطم حينما رأى حالة الأسقف الزرية من منزل قفر متهدم ، وبؤس ظاهر ، وعزلة قاتلة ؛ فارتد أدراجه إلى نابولي ومعه بقية من المال ؛ وهنالك بسم له الحظ ، وقضى بضعة أيام سعيدة ، تعرف خلالها بامرأة حسناء تدعى لوكريزيا وتوثقت علائقه معها بسرعة ، وكانت في الواقع أول صاحبة حقيقية خضعت لسلطان هواه

ثم نراه بعد ذلك في رومه يطرق الأبواب ويحاول أن يشق طريقه ؛ وقد كان عندئذ موفقاً إذ استطاع أن يلتحق بوظيفة في حاشية الكردينال أكوافيفا ؛ وقضى حيناً في رومه يستزيد من الدرس وينعم بصحبة لوكريزيا ، ويهيء لنفسه جواً من الرعاية والعطف بذكائه وذلاقته ورقة شمائله

على أن هذه الحياة الهادئة المستقرة لم تكن لتروق فتى مضطرم الجوانح مثل كازانوفا ، فقد كانت نفسه الوثابة الظمأى إلى المغامرة تحمله إلى آفاق أخرى ؛ وكان شبح المرأة يثيره ويلهبه أينما وجد ؛ وسرعان ما لفت الأنظار بفضائحه ودسائسه الغرامية وتفاقم الأمر حينما اتهم باغراء سيدة تمت إلى بعض الأحبار بصلات وثيقة ؛ ففقد وظيفته ومركزه مرة أخرى ، ورأى نفسه مرغماً على مغادرة رومه فغادرها إلى قسطنطينية يحدوه دائماً ظمأ المغامرة وتدفعه طلعة التجول

ثم عاد إلى البندقية ولكن عاد إليها في ثياب ضابط . ذلك أنه مر في طريقه بالمعسكرات النمسوية والأسبانية ، وحصل على ترخيص بالانتظام في سلك الجيش ، وقدر أنه يستطيع أن يخلق له في ظل هذا الثوب حياة جديدة ، ولكنه لم يحرز ترقية نظراً لسوء سلوكه ، فخلع ثوبه العسكري واشتغل مدى حين كاتباً في مكتب محام ، ولكنه لم يكن طويلا إلى هذا المنصب الوضيع ؛ وأخيراً ذكر أنه يستطيع العزف على القيثارة مذ كان صبياً

(١) هي القوارب المعروفة بالجوندولا وهي وسيلة النقل الوحيدة داخل المدينة

عشر كلمات

مهداة إلى « الأستاذ الزيات »

للأستاذ علي الطنطاوي

— ١ —

قال الله تعالى : « يا أيها الذينَ آمنوا اصبروا وصابروا » « ولنَبْلُوَنَّكم بشيء من الخوفِ والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشّر الصابرين » . « ولنَبْلُونكم حتى نعلَم المجاهدين منكم والصابرين » . « واستعينوا بالصبر والصلاة إنّ الله مع الصابرين » . « إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب »

— ٢ —

قال أبو سنان : دفنت ابني سناناً ، وأبو طلحة الخولاني جالس على شفير القبر ، فلما فرغت قال : ألا أبشرك ؟ قلت : بلى . قال : حدثني أبو موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا مات ولد العبد قال الله للملائكته : قبضتم ولد عبدي ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : قبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : ماذا قال عبدي ؟ فيقولون : حمدك واسترجع ، فيقول : ابنوا لعبدي بيتاً في الجنّة وسموه بيت الحمد

وعن أنس قال : اشتكى ابن لأبي طلحة فمات وأبو طلحة خارج ولم يعلمه ، فلما رأت امرأته أنه قد مات هيّأت شيئاً ونحّته في جانب البيت ، فلما جاء أبو طلحة ، قال : كيف الغلام ؟ قالت : قد هدأت نفسه ، وأرجو أن يكون قد استراح ؛ فظنّ أبو طلحة أنها صادقة ، ثم قرّبت له العشاء ، ووطّأت له الفراش ، فلما أصبح اغتسل ، فلما أراد أن يخرج أعلمته بموت الغلام ، فصلى مع النبي صلى الله عليه وسلم ثم أخبره ، فقال : لعلّه أن يبارك لكما في ليلتكما ، فجاءهما تسعة أولاد كلهم قرأوا القرآن

— ٣ —

قال محمد بن خلف : كان لإبراهيم الحربي ابن ، وكان له إحدى عشرة سنة ، قد حفظ القرآن ، ولقنه من الفقه شيئاً كثيراً ، فمات ، فجئت أعزيه ، فقال لي : كنت اشتهى موته . قلت : يا أبا اسحق ، أنت عالم الدنيا تقول مثل هذا في صبيّ قد أنجب ، ولقنته الحديث والفقه ؟ قال : نعم ، رأيت في النوم كأن القيامة قد قامت ، وكأن صبياناً بأيديهم القلال فيها الماء ، يستقبلون الناس يسقونهم ، وكأن اليوم حار شديد حره ، فقلت لأحدهم : اسقني من هذا الماء ، فنظر إليّ فقال : لا ، ليس أنت أبي ، فقلت : فأيش أنتم ؟ قال : نحن الصبيان الذين متنا في دار الدنيا ، وخلفنا آباءنا نستقبلهم فنسقيهم الماء ، فلهذا تمنيت موته

— ٤ —

كتب سعيد بن حميد إلى محمد بن عبد الله : ليس المعزّى على سلوك السبيل التي سلكها الناس من قبله ، والمضيّ على السنة التي سنها صالحو السلف له ، وقد بلغني ماحدث من قضاء الله في أم الأمير ، فنالني من ألم الرزية ، وفاجع المصيبة ما ينال خدمه الذين يخصهم ما خصه من النعم ، ويتصرفون معه فيما تناوله الله به من المحن ، فأعظم الله للأمير الأجر ، وأجزل له المثوبة والذخر ، ولا أراه في نعمة عنده نقصاً ، ووفقه عند النعم للشكر الموجب للمزيد ، وعند المحن للصبر المحرز للثواب ، إنه هو الكريم

يدرس في بادوا ، فانتظم عازفاً في إحدى الفرق المتواضعة ؛ وفي ذات ليلة تعرف بسيد كبير وشيخ سابق يدعى براجادين في حفلة كان يعزف فيها ، وقدر أن أصيب هذا الشيخ في نفس الليلة بنوبة صرع ، وكان كازانوفا إلى جانبه في قاربه ، فهرع إلى غوثه واستدعى له طبيباً ، ولبث يعنى به حتى شفي ، فعرف له براجادين هذه اليد ، وقربه إليه وأنزله بقصره الفخم وأجرى عليه النفقة الواسعة ، واستطاع كازانوفا في نفس الوقت أن يؤثر في مضيفه بمزاعمه في معرفة الغيب وضروب السحر ، وأن يكسب ثقته ، وأن يعود بفضل رعايته فيغزو ذلك المجتمع الرفيع الذي أقصي عنه مدى حين

« للبحث بقية » محمد عبد الله عنان

(النقل ممنوع)

الوهاب ، ورحم الله الماضية رحمة من رضى سعيه ، وجازاه بأحسن عمله ، ولوكانت السبل إلى الشخوص إلى باب الأمير سهلة ، لكان الله قد أجلّ الأمير عن أن يعزيه مثلي بالرسول دون اللقاء ، وبالكتاب دون الشفاه ؛ ولكن الكتب لقاء من لا سبيل له إلى الحركة ، وقبول العذر عمن حيل بينه وبين الواجب

— ٥ —

لما حضرت الاسكندر الوفاة كتب إلى أمه أن اصنعي طعاماً ويحضره الناس ، ثم تقدمي اليهم ألا يأكل منه محزون ، ففعلت ، فلم يبسط أحد اليه يده ، فقالت : ما لكم لا تأكلون ؟ فقالوا : انك تقدمت الينا ألا يأكل منه محزون ، وليس منا إلا من أصيب بحميم أو قريب . فقالت : مات والله ابني ، وما أوصى إلىّ بهذا إلا ليعزيني

— ٦ —

كتب ابن السماك إلى الرشيد يعزيه عن ابن له : أما بعد ، فان استطعت أن يكون شكرك لله حين قبضه ، أكثر من شكرك له حين وهبه فافعل ، فانه حين قبضه أحرز لك هبته ، ولو سلم لم تسلم من فتنته ، أرأيت حزنك على ذهابه ، وتلهفك لفراقه ؟ أرضيت الدار لنفسك فترضاها لابنك ؟ أما هو فقد خلص من الكدر ، وبقيت أنت معلقاً بالخطر ؛ واعلم أن المصيبة مصيبتان إن جزعت ، وإنما هي واحدة إن صبرت ، فلا تجمع الأمرين على نفسك

— ٧ —

قدم رجل من عبس ، ضرير محطوم الوجه على الوليد ، فسأله عن سبب ضرّه ، فقال بت ليلة فى بطن واد ولا أعلم على الأرض عبسياً يزيد ماله على مالى ، فطرقنا سيل فأذهب ما كان لى من أهل ومال وولد ، إلا صبياً رضيعاً ، وبعيراً صعباً ، فندّ البعير والصبي معى ، فوضعته واتبعت البعير لأحبسه ، فما جاوزت إلا ورأس الذئب فى بطنه قد أكله ، فتركته واتبعت البعير فاستدار ورمحنى رمحة حطم بها وجهى ، وأذهب عيني . فأصبحت لا ذا مال ولا ذا ولد

فقال الوليد : اذهبوا به إلى عروة ليعلم أن فى الناس من هو أعظم بلاء منه ، وكان عروة بن الزبير أصيب بابن له وأصابه الداء الخبيث فى إحدى رجليه فقطعها ، فكان يقول : كانوا أربعة — يعنى بنيه — فأبقيت ثلاثة وأخذت واحداً ، وكن أربعاً — يعنى يديه ورجليه — فأخذت واحدة وأبقيت ثلاثاً ؛ أحمدك ، لئن كنت أخذت لقد أبقيت ، ولئن كنت أبقيت لقد عافيت . وشخص إلى المدينة فأتاه الناس يبكون ويتوجعون ، فقال : إن كنتم تعدونني للسباق والصراع فقد أودى ، وإن كنتم تعدونني للسان والجاه فقد أبقى الله خيراً كثيراً . .

— ٨ —

وعزى موسى بن المهدى سليمان بن أبي جعفر عن ابن له فقال : أيسرك وهو بلية وفتنة ، ويحزنك وهو صلاة ورحمة ؟

وعزّى سهل بن هارون فقال : التهنئة على آجل الثواب ، أولى من التعزية على ما حلّ من المصيبة

وقال عبد الله بن الأهتم : مات لى ابن وأنا بمكة ، فجزعت عليه جزعاً شديداً ، فدخل علىّ ابن جريج يعزيني ، فقال يا أبا محمد ، اسلُ صبرا واحتسابا ، قبل أن تسلو غفلة ونسياناً

وعزّى علىّ كرم الله وجهه الأشعث عن ابنه ، فقال : إن تحزن فقد استحقت ذلك منك الرحم ، وإن تصبر فان فى الله خلفاً من كل هالك ، مع أنك إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور ، وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت آثم

— ٩ —

جزع رجل على ابن له فشكى ذلك إلى الحسن ، فقال له : هل كان ابنك يغيب عنك ؟ قال : نعم ، كان مغيبه عنى أكثر من حضوره . قال : فاتركه غائباً ، فانه لم يغب عنك غيبة الأجر لك فيها أعظم من هذه الغيبة

— ١٠ —

وكتب بعض الكتاب معزياً : لو كان ما يمسك من أذى يشترى أو يفتدى ، رجوت أن أكون غير باخل بما تضن به النفوس ، وأن أكون ستراً بينك وبين كل ملم ومحذور ، فأعظم الله أجرك ، وأجزل ذخرك ، ولا خذل صبرك ، ولا جعل للشيطان حظاً فيك ولا سبيلا عليك

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

علي الطنطاوي

تعليم والحالة الاجتماعية
في مصر

للأستاذ اسماعيل مظهر

لقد بلغنا من البحث ذلك المبلغ الذي يهيئ لنا أن نخلص إلى النتائج ، فقد شرحنا الأسباب التي أفضت بنا إلى تخريج متعلمين عاطلين لا عمل لهم ، ولا بيئة يمكن أن ينتفع فيها بما تعلموا ، وصورنا مجمل النتائج الاجتماعيـة التي تترتب على هذه الحال ، وطبقنا النظريات الاجتماعية فاستنبطنا منها صورة لما سوف يكون عليه مجتمعنا في المستقبل القريب والنتائج السيئة التي ستظهر آثارها جلية واضحة في عجزنا عن الاحتفاظ بحالة اجتماعية ثابتة قوية الأركان ، وعطفنا من ثم على وصف صورة من أدبنا ووطنيتنا ، وعزونا كل النقائص إلى نظرية جديدة محصلها أن الانفصال عن ثقافتنا التقليدية كان سبباً في أن نصبح ككائن حي لا معدة له ، يأكل ولا يهضم ، فتراكمت في كيانه كل النفايات التي لا تلائم طبعه ولا تتفق ومزاجه ، وأن ذلك كان سبباً في ألا تظهر له شخصية خاصة به ، وأصبح كلاً على غيره بأن فقد استقلاله الذاتي في الحياة »

ويجدر بنا بعد ذلك أن نُبين مم تتكون الثقافة التقليدية ، ليتيسر لنا أن نحدد البحث تحديداً منطقيا مقبولا ، فان لكل ثقافة تقليدية اختصت بها أمة من الأمم مكونات تنتهي إلى أصول بعينها ؛ وعندي أن للثقافة التقليدية عنصرين : الأول عنصر عقلي ، والثاني عنصر معاشي ، وكلاهما موروث ؛ فالأول يتكون وراثة من اللغة والدين والتاريخ والأدب والفنون الخ ، والثاني يتكون وراثة من كل ما يتعلق بالأحوال المعاشية ، وهي في مصر الزراعة وما يتعلق بها من المنتجات ، ومن أجل أن يكمل استقلال الفرد استقلالا عملياً في الحياة ، ينبغي أن يتجه تنشيئه إلى أصل أساسي ، وبالأحرى إلى سياسة عملية ترمي إلى وصله بالعنصرين وصلا وثيقاً ، حتى يستطيع أن يمثل جميع ما يلقح به من مقتضيات الثقافة الحديثة ، فيكيفها على حسب ما تتطلبه حاجات ثقافته التقليدية ، وأن ينفي عن جسمه كل ما هو غير ملائم له ، فيظل سليما ؛ شأن كائن حي اتصف بكل ما تمده به حيوية مكتملة من الصفات الضرورية للحياة ، وتكامل في كيانه كل الأعمال المنظمة التي ترجع الى قدرة أعضائه على تنظيم وظائفها المتبادلة تنظيما دقيقاً يساعد الطبيعة على أن تفسح له في الحياة مركزاً جديراً بما يتصف به من صفات ، وبما له من مقدرة على الاستقلال بذاته

تتصل مصر بثقافتين من أمجد الثقافات التي خلفها النوع الانساني : ثقافة العرب : ديناً ولغة ؛ وثقافة المصريين : فناً وحياة ؛ ولا شك في أن الثقافتين تمتزجان الآن في المصريين امتزاجاً عظيما ، حتى ليتعين علينا أن نقول إن ما نعني بالثقافة التقليدية ينحصر فيما ينتج مزيج الثقافتين القديمتين من حالات تشعر بأن ماضينا مكون منها ، وأن دمنا ملقح بها ، وأن تصوراتنا وأخيلتنا ومشاعرنا وجماع ما فينا من صفات إنما تنعكس عنها وتنبعث منها . وكذلك إذا قلنا « المصرية » فانا لا نعني بها شيئاً إلا مزيج تينك الثقافتين المجيدتين اللتين كونتا لنا على مر العصور تراثاً قوياً نستند اليه ، ودعامة مثلى لمجد ينتظرنا إذا نحن استوحيناها واسترشدنا بوحيهما ، واتخذناها أساسا نقيم عليه لمستقبلنا ، ولم نعزف عنهما شأننا الآن

وإذن يكون لنا من ثقافتنا التقليدية ناحيتان : الأولى ثقافة تزودنا بها اللغة العربية والدين الاسلامي ؛ وهذه الناحية تكون أكثر ما فينا من نزعات الأدب والعلم ؛ والثانية ثقافة تزودنا بها مصر القديمة ؛ وهذه بدورها تكون متجهنا الفني والمعاشي ؛ ومنهما معا يتكون ذلك التراث الخالد الذي ندعوه ثقافة المصريين التقليدية

ولن يكون هذا البحث كاملا إلا إذا عرفنا قيمة اتصالنا بهذه الثقافة ومقدار ما نحتاج اليها في تكوين نهضتنا الحديثة تكوينا نضمن معه الثمرة العملية التي ترجى من جيل جديد قادر على الكفاح في الحياة ، والعمل المنتج الذي يعيننا على اقرار الحالات الاجتماعية على أساس ثابت ، وآمل أن أكون قد أفلحت بعض الشيء في تصوير ذلك في سياق هذا البحث

* * *

لا ريبة في أن التعليم العام هو الأداة التي تمهد لنا سبيل

الاتصال بثقافتنا التقليدية ، ولقد وضح لنا حتى الآن أن السياسة التى جرى عليها التعليم فى بلادنا قد اضعفت من وسائل هذه الأداة اضعافا ظهر أثره جليا فى كل مرافقنا ، بل وفى كل نواحى حياتنا عقلية ومادية

عمد الأوربيون منذ عصر النهضة الأدبية الحديثة إلى الاتصال بثقافتين أوربيتين كانتا العماد الأول والسنادة العظمى فى تلك النهضة . عمدوا إلى ثقافة اليونان وثقافة الرومان ، حتى لقد غالوا فى ذلك باتخاذ اللغة اللاتينية لغة رسمية فى العلم وفى الأدب وفى الفن ، فأحيوا بذلك ثقافتين لم يكن لهم مناص من احيائهما لتكونا الوصلة بينهم وبين ماض صبغ ثقافته حوض البحر المتوسط قروناً بصبغة خاصة ولون خاص ؛ ولا تزال جامعات أوربا حتى اليوم تعنى العناية كلها بتلقيح عقول الناشئين بتراث الثقافتين معاً ، بل وتجعل درس اللغتين اليونانية واللاتينية أصلا من أصول التثقيف العالى ، فلم كان ذلك ؟ ولأى من الأسباب الحيوية التى شعر بها الأوربيون فى بدء نهضتهم ترجع هذه الظاهرة ؟ إنها ترجع كما قلنا إلى أن الثقافة التقليدية هى الأصل الذى يجب أن يظل ثابتا فى بناء الأمم الأدبى والاجتماعى ، ليكون ملتحما للآراء والنظريات وضروب الثقافات الدخيلة ، احتفاظا بالطابع الأصيل فى الأمة ، ذلك الطابع الذى هو جزء من كيانها وقطعة من وجودها ، وليكون فى الوقت ذاته العدة فى تمثيل ما يتصل بثقافة الأمة من الثقافات المنتحلة غير الأصيلة ، وتكييفها تكييفا يتفق ونزعاتها ومشاعرها وأخيلتها ، وعلى الجملة يتفق وثقافتها التقليدية . فهل اتبعنا فى نهضتنا هذا السبيل القويم ؟ وهل كفل لنا التعليم الوصول إلى هذه الغايات العليا ؟

كلاً . لم يكفل لنا التعليم شيئاً من هذا . وأقصد به التعليم بناحيتيه : الناحية التى تمثل وراثتنا عن العرب لغة وديناً ، وأعنى بها الأزهر ، فانه لم يلقح بشيء من الثقافات الحديثة التى يجب أن يلقح بها لتكون له بمثابة الدم الجديد يجرى فى العروق القديمة . وكذلك لم تمن الناحية التى تمثل ثقافتنا الدخيلة : أى الثقافة الأوربية وأعنى بها ناحية التعليم الزمنى ، بأن تكوّن فينا تلك الفطرة التى تصلنا بثقافتنا التقليدية لتكون معملا حديثاً يتحلل فيه ما يصلنا عن أوربا ، ويخرج منها مصبوغاً بصبغة

مصرية أصيلة . ومثل الأزهر فى ذلك كمثل كائن حى هضم ولم يأ كل ، ومثل التعليم الزمنى كمثل كائن حى أكل ولم يهضم . فناحية جائعة وناحية متخومة

لقد ظل اتصال الأزهر بذلك الجزء الذى يمثله من ثقافتنا التقليدية غير مكيف بمقتضيات العصور والحالات التى قامت خلالها وهو أقل تكيفاً بمقتضيات هذا العصر منه بمقتضيات كل عصر مضى . أما إذا كانت كلمة الثقافة تدل على تكييف الذهن تكييفاً تاريخياً أول شيء — ونقصد بالتكييف التاريخى خلق تصورات جديدة من تاريخ الأمم القديمة — فما من شك إذن فى أن الأزهر لم يتصل بالثقافة التقليدية من ناحيتها التى تخلق هذا التصور ، وإنما اتصل بناحية من الثقافة التقليدية صدت التصورات عن الابتعاث فى سبيل الابتكار . وكذلك ظل تعليمنا الزمنى بعيداً عن الاتصال بثقافتنا التقليدية من جميع نواحيها تقريباً . ومن هنا ذلك الصدع المتنائى الذى نلحظه قائما بين الناحيتين

ولقد يخيل إلى أن ما مضينا فيه من بحث هذه الناحية كاف للبيان عما نقصده من ضرورة الاتصال بثقافتنا التقليدية من الوجهة العقلية . أما الوجهة الفنية الماشية ، وهى الناحية التى لها الأثر الأكبر فى علاج الحالات الاجتماعية التى قامت حفافيها من الناحية الاقتصادية ، فتلك ما سوف أصور كيفية الاتصال بها تصوراً عملياً لأن ذلك هو الغرض الأول من بحثنا هذا

***

إذا كان ما قلنا صحيحاً من أن البطالة فى مصر والتعليم أمران متصلان أشد الاتصال ، باعتبار أن أحدهما مرض والثانى علاج ، فالواجب يقضى علينا بعد أن أظهرنا أوجه الاتصال أن نبين عن الطريق العملى الذى يجعل العلاج ناجعاً فى القضاء على الداء . ولما كانت ثقافتنا التقليدية من الوجهة الماشية هى الزراعة تحتم علينا بحكم الضرورة أن ننقل درجتى التعليم الأوليين ، أى الابتدائى والثانوى ، وهما الدرجتان التكوينيتان فى مراحل التعليم ، من المدن الى القرى ، وأن نقيمهما على سياسة تختلف اختلافاً تاماً عن السياسة التى يجريان عليها الآن

تجرى سياسة التعليم الآن فى هاتين المرحلتين على أساس نظرى بعيد عن أن يجعل لنا أى اتصال بثقافتنا التقليدية ، من

وجهتها العقلية والماشية . وإنى لا أكون مغالياً إذا قلت إن هذه السياسة لا تصلنا بثقافة أوربا أيضاً بحيث تجعلنا قادرين على فهم ما ننقل منها فهماً صحيحاً مفيداً . وما قولك فى شاب يخرج من التعليم الثانوى جاهلاً بلغته العربية وأصولها وآدابها غير متصل بآداب دينه ، غير عارف بشىء من تاريخ بلاده ، وبالأحرى من تاريخ العرب أو تاريخ مصر ، عاجز عن التعبير تعبيراً صحيحاً بأى من اللغتين الأوربيتين اللتين يتلقاهما فى مراحل ذلك التعليم ؟ أضف إلى ذلك أنه بجانب هذا يخرج من التعليم الثانوى غير متصل بشىء من ثقافة بلاده التقليدية من الوجهة الماشية ، غير متصل بطبيعة الأرض التى أنشأته أو بطرق استغلالها مشحون الذهن بنظريات وأوهام يتعذر معها أن يعايش الفلاح وأن يدرك شيئاً من سر حياته وتقاليده وخطراته ونفسيته . فكأننا بهذا التعليم نخلق من حوله جواً مصطنعا وبيئة عقلية غريبة عن طبعه ؛ فيصبح بذلك أداة عاطلة فى جسم الاجتماع وبزرة حية للتبرم من الحالات القائمة من حوله فى مرباه ، بل ومنشأ للقلق ومرتعا لغرس الافكار المتطرفة الخاطئة ؛ وعلى الجملة يكون موضعا خصبا لغرس بذور الشر والفساد ، والعمل على قلب النظم الاجتماعية طمعاً فى الحصول على نظم تلائم كفاياته وتتفق ومؤهلاته التى أهله لها التعليم . ذلك بأن كل عقلية لها تكوين خاص تنشد من طريقه دائماً البيئة التى ترضيها ، وعجز المتعلم العاطل عن الانتاج إنما يحمله بمقتضى موحيات عقله الباطن على أن يعمل على تكوين البيئة التى تلائمه متخذاً من النظم الاجتماعية التى نشأ فيها مادة يجرب فيها مقدار ما فى نفسه من قوة التحليل ، لا من قوة التشييد ، على خلق البيئة التى ترضيه ، والنظم التى توائم عقليته وكفاياته

إن الخطوة الأولى التى ندعو إليها وهى نقل درجتى التعليم الأولين من المدن إلى القرى ، لخطوة ضرورية فى علاج سياسة التعليم ، وهى الخطوة الأساسية فى وصل التعليم بثقافة البلاد التقليدية من الوجهة الماشية . أما الخطوة الثانية فتنحصر فى إقامة مدارس الحقول ، فتشيد المدرسة على أرض فسيحة تكفى لأن تكون ميداناً يتعلم فيه الطلاب طرق الزراعة العلمية على القواعد الحديثة ، ويجب مع هذا أن تلغى الشهادة الابتدائية ويكتفى بشهادة التعليم الثانوى ، وأن يبدأ الطالب حياته التعليمية من الثامنة ، ويفرغ من تعليمه الثانوى بعد عشرين سنة ، فيخرج من المدرسة وله من العمر ثمانى عشرة سنة أو عشرون سنة . فاذا أراد أن يتخصص بعد ذلك فى التعليم العالى فله ذلك ولكن بعد أن يكون قد اتصل بثقافة بلاده التقليدية ، وقامت معلوماته على أساس عملى رشيد ، يكون إليه مرد رزقه إذا تخصص وعجز عن كسب رزقه الحلال .

هذا هيكل من الرأى يحتاج إلى شرح وجيز . فاننا لا نعنى أن تعليم الطلاب فى تلك المدارس الزراعة العمليـــة يجب ألا يصل الطالب بالناحية النظرية ، وإنما نعنى أن يكون أساس التعليم فيها الزراعة العملية وما يتصل بها من العلوم ، وبجانب ذلك تعليم نظرى قائم فى أول الأمر على الاتصال بثقافة المصريين التقليدية من الوجهة العقلية ، مع العناية بأمر اللغات الأوربية عناية كبرى حتى يتيسر لنا الاتصال بثقافة العصر اتصالاً وثيقاً صحيحاً

أضف الى ذلك أن الطالب ينبغى أن يلقن كل ما يتصل بالانتاج الصناعى من الوجهة الزراعية ، فيخرج ملماً بطائفة من الصناعات المتصلة بمحصولات بلاده الزراعية عارفاً بسرها ووجهة الانتفاع بها . وإنى لن أغالى إذا قلت إن كثيراً من الذين ينجحون من أهل أوربا فى بلادنا أكثر اتصالا بثقافة بلادنا التقليدية من الوجهة الماشية من الطالب المتخرج فى كلية عليا من كلياتنا . وفى هذا سر نجاحه العملى وسر عطل شبابنا عن العمل . ولهذا يتحتم علينا أن ندعو الى نشر الصناعات ، ولكن الصناعات التى تتصل أول شىء بمنتوجاتنا الزراعية ، وأن نصدف عن غيرها لأنها لا تفيدنا شيئاً فى حياتنا الماشية أو تثبيت حالاتنا الاجتماعية المرتجة الشاذة . وبخاصة إذا وعينا أن دور التعليم على اختلاف نواحيها تخرج كل عام عدداً من المتعلمين تعليما غير عملى زائداً عن حاجة البلاد .

وإنما يجب أن يتجه التعليم فى الحقول الى غاية أخلاقيـــة ، محصلها أن يغرس فى طبيعة المتعلمين تصور جديد فى شرف المهنة التقليدية التى ورثناها عن أسلافنا ، ألا وهى الزراعة . فإن التلميذ يجب أن يضع يده فى كل عمل يمكن أن يؤديه الفلاح بنفسه ، وأن يتصل من طريق عضلاته بكل ما تتطلب مهنة الزراعة من أعمـال جسمانيـة ، وأنه لا يرى فى

ذلك شيئاً خادشاً لعزته أو مذلا لنفسه

أورثنا الحكم التركي المشؤوم عادة احتقار الفلاح ، لأن كلمة « فلاح » كانت توازي عند الترك أحط ألفاظ الشتم وأشنع كلمات السباب . ولطول الأمد الذي اعتدنا أن نسمع فيه هذه الكلمة مؤدية ذلك المعنى غرس في طبيعة المصريين أنفسهم ، بطريق التكرار ومستوعيات العقل الباطن ، ميل إلى احتقار الفلاح واحتقار مهنته ، والاعتقاد بأن العمل اليدوي في الزراعة إنما هو عقاب نفسي مرهق للنفس خادش للذة . وأنت ترى أن الاعراب في مصر قد انتحلوا هذه المادة . فانك إذا سألت أعرابياً أفلاح أنت ؟ أجابك على الفور : « كلا ! أنا عربي ! » ولكن بنبرات تدل على أنه يعتبر الكلمة اعتداء على مكانته السامية ، وقد يكون من خشاش الناس ومن ذؤبان العرب ، مهلهل الثياب قذر النظر والمخبر .

ولم يقف الأمر عند هذا ، بل إنك تجد أن الفلاح إذا قضى خدمته العسكرية وسرح من الجيش أنف أن يعود إلى الحقل أو أن يحمل المحراث أو يقود الماشية ؛ فاذا عجز عن أن يكون شرطياً ، قضى وقته في القرية عاطلا أو محترفاً حرفة أخرى غير الزراعة ، فتجده نجاراً أو حداداً لا يملك قوت يومه . وقد يتطرف بعضهم في احتقار مهنة آبائه فيغشى المجالس عازفاً على قيثارة ، لأنه كان في موسيقى الجيش ، مستجدياً بها ، كأنما هو يعتقد أن الاستجداء بالعزف على قيثارة أشرف من العمل في الحقول .

ولا شك في أن هذه الظاهرة قد أورثت نقصا نفسياً يمكن تعليله علمياً ، ولكن ليس هنا مكان إيضاحه . ولكن ذلك لا يحول دون القول بأن هذه الظاهرة من السهل علاجها بأن نعود أولادنا الاعتقاد بشرف المهنة التي تربي جسومهم ، وعليها قامت مدنيتهم منذ أقدم العصور ، على أن نفهمهم أولاً أن لهم مدنية وماضيا جديرين بالاحترام

والمحصل أننا لن نخلص من نتائج البطالة إلا بالالتجاء إلى إقامة سياسة التعليم على قواعد جديدة أساسها الأول الرجوع إلى ثقافتنا التقليدية ، فنخرج رجالا مستقلين بأنفسهم يعرفون كيف يرجعون إلى حضن أمهم الأولى « مصر » إذا أرادوا الحياة سعيدة هنية . ومن أجل أن نصل إلى هذه النتيجة ينبغي لنا أن ننتحي أسلوباً معيناً ينحصر في تنفيذ الآتي :

أولا — جعل مدة التعليمين الابتدائي والثانوي عشر سنوات يمتزج فيها التعليم النظري بالتعليم العملي الزراعي ، وأن يغرس في الطلاب روح الاعتقاد بشرف مهنة آبائهم التقليدية ، وأن يقترن هذا التعليم بتلقين الصناعات الزراعية وبخاصة ما يتعلق بالزراعة العملية منها

ثانياً — درس تاريخ العرب والمصريين درساً تحليلياً وافياً

ثالثاً — درس مبادئ العلوم والآداب العامة ، وهي الجهة التي تلقح بها عقولنا من الثقافة الحديثة

رابعاً — درس آداب العرب ومبادئ الدين العليا .

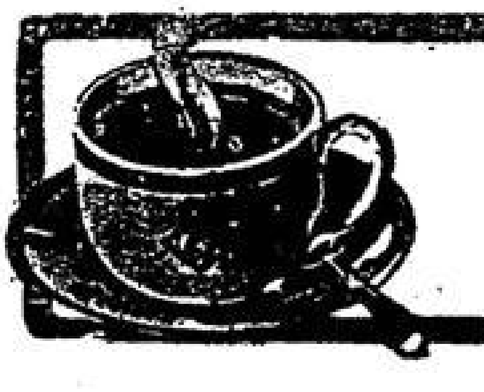
خامساً — درس عقائد المصريين القدماء وطرق معيشتهم وآثارهم وأعيادهم ، وعلى الجملة كل ما يتعلق بحياة الجماعة في مصر القديمة

وهنالك بجانب هذا أشياء يجب أن يهيأ الناشئ بمعرفتها ولكنها جميعاً تفاريع عمل هذه الأصول فلا محل لذكرها

فاذا تخرج الطالب وله من العمر ثماني عشرة سنة أو عشرون أصبح على الحكومة له واجباً تؤديه ، هو أن تمنحه قطعة من أرضها المملوكة لها يؤدي لها فيها ثمناً قليلاً على أقساط طويلة ، وأن تمده برأس مال إن احتاج اليه يسدد مع ثمن الأرض ليكون عونه على إعداد عدته لحياة العمل والكفاح

هذا طريق الخلاص ، وهو وحده طريق القضاء على البطالة ، وإخراج جيل جديد منشأ على طرق عملية ، جيل مكافح عامل خال من آثار الأمراض الاجتماعية ، جيل يشعر بأنه مستقل في الحياة وأن له عزة الرجولة وشرف الانتساب إلى مصر الخالدة ، جيل ، هو جيل الاستقلال الحقيقي والعمل لمجد النيل

اسماعيل مظهر



قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي

وكيل كلية العلوم

الدفتريا

بين واحد سمها الفرنسي، وكاشف ترياقها الألماني

— ١ —

في عام ١٨٨٨ ألقى بستور من كفه المشارط والأنابيب، ونفض يده من الأبحاث، فقام تلميذه أميل رو Emile Roux فالتقط الذي ألقاه أستاذه، وغمر يده في الذي ترك سيده، واتخذ لنفسه بحثاً مستقلاً. فلم يمض قليل من الزمن حتى اكتشف سمّاً غريباً يتحلّب من بَشِيلات الدفتريا سمّاً تقتل الأوقية المركزة منه خمسة وسبعين ألف كلب كبير

وبعد هذا بسنوات قليلة، بينا كوخ يخفّض من رأسه تحت وابل الشتائم واللعنات التي صبها عليه من كانوا آمنوا بعلاج سلّه المزعوم ثم خُدعوا فيه وجَنَوا منه التَّسَل والأحزان، قام أحد تلاميذه، وكان شاعراً، نخفّف من إخفاق أستاذه كوخ بأن كشف في دم الخنازير الغينية عن مادة غريبة إذا هي التقت بسم الدفتيريا ذهبت بشره وجعلته بَرداً على الناس وسلاماً، وكان اسم هذا الشاعر العالم أميل بارنج Emil Behring

اكتشف أميل الفرنسي سمّ هذا الداء، واكتشف أميل الألماني ترياقه، فأحيا الأميلان الأمل في أنفس الناس بعد أن أضاعه كوخ بنكبته الكبرى؛ فعادوا ولو إلى حين يرجون أن تصبح المكروبات أصدقاء الانسان بعد أن كانت أعداءه، وأن تصير لُعَبات لا تضر، يَتلهّى بها البُحّاث ويتسلون من سأم وعناء

قام هذان الشابان بتجاربَ أي تجاربَ لاستقصاء هذا الداء؛ قاما بها في هلعٍ مجنونٍ ليخلّصوا أرواح البرايا. شقا طريقهما إلى غايتهما في مجزرة لم تسمع الدنيا بمثلها. جزرا فيها عدداً لا يحصى من الخنازير الغينية، جزراها ليخلّصا من الموت عدداً أكبر لا يحصى من الأطفال المساكين. ففي الأمساء كانت معاملهم كميادين القتال في الأزمان الخوالي، حين كان الجند تُبقَر بطونهم وتقطّع أوداجهم بالحراب تارة والنبال تارة أخرى. ضرب رو Roux بأظفاره كالغول في أطحلة الموتى من الأطفال، ودار بارنج بين الدماء في ظلام من الجهل دامس حتى اصطدم أنفه بباب انفتح له عن حقائق وضّاءة باهرة ما كانت لتخطر على بال الآلهة

ولكنهما دفعا عن كل تجربة ناجحة ثمناً غالياً: ألفَ تجربة فاشلة، ولكن مع هذا، وبرغم هذا، قد اكتشفا الترياق

وما كان لهما أن يكتشفاه لولا أن سبقهما كشفٌ متواضع قام به فريدريك لُفلار Frederick Loeffler، صياد المكروب الذي حمل على شفتيه شارباً ألمانيا حربيا علا واستطال حتى حجب بصره، فكان إذا نظر في المجهر نحّاه عن عينه؛ وكان يعمل لُفلار إلى جانب أستاذه كوخ في زمن البطولة الأولى حين كان يتصيد مكروب السل. ففي أوائل ذلك العقد التاسع من القرن الغابر كانت وطأة الدفتيريا شديدة جداً، والدفتريا داء تشتد وطأته وتلين في القرن الواحد مراراً. وامتلأت في المستشفيات عنابر الأطفال بالمرضى، وعلت أصوات أهليهم بنحيب لا فائدةَ منه تعود ولا نفع يُرجى، وخرجت من تلك الحلوق الصغيرة سعلة تصحبها قرقرة تنذر بأن الاختناق قريب، وتراءت وجوههم الصغيرة الزرقاء في وساداتهم البيضاء وقد ازرقّت من فعل اليد الخفية التي عصرت حلوقهم وضغطت على رقابهم. ومشى الأطباء في هذه الأروقة يسترون يأس القلوب ببشاشة الوجوه، وساروا من سرير إلى سرير لا حول لهم ولا قوة إلا أن يدسّوا في حلق طفل مختنق أنبوبة في هذا الغشاء الذي يسد عليه منفذ الهواء يحاولون بذلك أن يفتحوا له منفذاً إلى رئتيه

وقذفت خمسة أسرة من كل عشرة بأحمالها إلى رواق الأموات. وكان في أسفل الدار، وكان به لُفلار يعمل بجدٍّ لا يفتر، وهمة لا تضعف. كان يغلي مشارط، ويحمى في النار أسلاك البلاتين، ويدخلها الى هذه الحلوق الجامدة من تلك الأجسام الهامدة التي أخفق الأطباء في طلب الحياة لها؛ ثم يخرجها منها وقد حملت مادة شهباء، فاما أن يدخلها في أنابيب رفيعة يسدّها بنُتافات من القطن بيضاء، وإما أن يضع عليها الأصباغ ثم ينظرها بالمجهر فيرى بَشِيلات غريبة منتفخة الأطراف، وقد تنقّطت وتخططت بصبغته الجميلة الزرقاء،

وكشف عن هذه البشلة فى الحلوق جميعها ، وأسرع يطلع أستاذه كوخ عليها

لا شك أن كوخ أخذ بيد لفلار أخذا وهو يكشف عن هذه البشلة . وكأنى بك تسمع كوخ يقول له : « لا فائدة من النط إلى استنتاجات غير ناضجة ، يجب عليك أول شيء أن تُربّى هذا المكروب نقيا ، ثم عليك بعد ذلك أن تحقنه فى حيوانات ، فاذا هى أصيبت بمرض يشبه دفتريا الانسان تماما ، إذن .... »

كيف كان يضل لفلار والى جانبه هذا المتحذلق الشديد فى حذلقته ، هذا الحِذر الغالى فى حذره ، طلّابُ الحقيقة وسيد قنّاص المكروب ؟ كيف كان يضل لفلار والى جانبه هذا الداهية ينظر اليه ازورارا من نظّارته التى ما كانت تفارق عينيه أبدا ؟

وامتحن لفلار جثة طفل بعد أخرى ، وفتّش فى كل جزء من أجزائها وهى طريحة تبعث الأسى فى القلوب ، وصبغ مائة شليخة مختلفة من كل عضو من أعضائها ، ثم حاول أن يربّى هذه البشلات المخططة نقيّة ، وأفلح فى ذلك سريعا ، ولكنه لم يجد هذه البشلات حيثما بحث فى الأجساد إلا فى الغشاء الذى بحلوقها ، ودائما فى هذه الحلوق ، إلا طفلا أو طفلين ، كان يقع على هذه البشلات المنتفخة الأطراف ، فتفكّر لفلار : « كيف تأتّى لهذه المكروبات القلائل التى لا تحلّ من الجسم إلا فى الحلق ، كيف تأتّى لها وهى لا تفارق مكانها أن تقتل الطفل بمثل هذه السرعة ؟ ولكن لعل الأولى بى أن أتبع ما قال السيد كوخ » . وبدأ يحقن زريعاته من البشلات النقية فى الأرانب فى قصباتها الهوائية ، وفى الخنازير الغينية تحت جلودها . وما أسرع ما ماتت هذه الحيوانات . ماتت فى يومين أو ثلاثة كما يموت الطفل أو كانت أسبق إلى الموت . ثم أخذ يبحث عن المكروبات فى أجسام هذه الحيوانات فلم يجدها إلا حيث دخلت الحقنة فحسب . . . . وأحيانا أعوزه وجودها حتى هنالك ، إلا أن تكون وحدات منها قليلة ضعيفة لا تقوى على الاضرار ببرغوث صغير .

وتساءل لفلار : كيف أن قليلا من بشلات تحل من الجسم فى ركن قصىّ منه ، كيف أنها فى قلتها وعزلتها تستطيع أن تصرع هذا الجسم وهو فى عظمه أكبر منها ملايين المرات

وكان لفلار باحثا أمينا لا يفوقه فى أمانته من البحّاث أحد . وكان دقيقا بطبعه فكانت تواتيه الدقة بغير عناء . وكان أقل الرجال حظا من الخيال الجامح فلم يتدخل شيء منه فى نتائجه الدقيقة فيزينها — أم هو يفسدها — بالذى ليس منها . وجلس يوما إلى مكتبه وكتب رسالة علمية تتضمن خلاصة بحثه ، فكانت مقالة متواضعة ، باردة ، لا تؤول قارئها فى شيء ، ولا تحمسه لأمر . كانت على نقيض ما يكتب الحالمون . وجادل فيها أمر هذه البشلات ، أهى سبب الدفتريا وجرثومتها أم هى غير ذلك . ذكر كل الحقائق التى قد تؤدى الى أنها جرثومتها حقا ، وذكر كل الحقائق التى قد تؤدى إلى نقيض ذلك . تشبث بالأمانة تشبثا كبيرا ، وكتب كل ما قد ينفى أن تكون هذه البشلة سبب الداء : وكأنى بك تسمعه إذ يحدث نفسه وهو يكتب فيقولُ : « قد تكون هذه المكروبة هى السبب ، ولكنى فى عدد قليل من جثث الأطفال لم أستطع أن أجدها ... والحيوانات التى حقنتها لم يصبها شلل كالذى يصيب الأطفال ... والحقيقة التى هى أشد مناقضة لى هى أنى وجدت نفس هذه المكروبة — وهى تقتل الأرنب والخنزير الغينى — فى حلق طفل ليس عليه من أعراض الدفتريا شيء »

وغالى فى أمانته فلم يقدر بحثه الجليل الذى أتاه حق قدره ، ولكنه فى آخر رسالته كتب فقرة أوحى فيها بحل المعضل وفك المشكل وإيضاح السبيل الى سر هذا الداء ، إيضاح السبيل إلى غيره لا إلى نفسه ، إلى الفرنسى رو Roux وإلى الألمانى بارنج Behring اللذين جاءا من بعده وكانا أشد منه خيالا وأنفذ به فى المشكلات المعضلات بصيرة . غريب أمر لفلار ! عرف السبيل الذى يسلكه لبلوغ الغاية ، ولكن بدل أن يتحرك هو ويقوم على قدميه فيسلكها ، إذا به يدل غيره فيفوز سواه بالحمد دونه . قال لفلار : « إن هذه البشلة تبقى على رقعة قليلة لا تخرج عنها فى غشاء ميّت فى حلق الطفل المريض . وتبقى كذلك فى مساحة ضيقة لا تعدوها تحت جلد الخنزير الغينى بعد حقنه . فهى لا تتكاثر فتصير ملايين وتعم الجسم كما نتوقع ولكنها مع ذلك تقتل حيث هى من مكانها ! فكيف يكون هذا ؟ لا بد أنها تصنع سمّا يخرج عنها فيسير وحده فى الجسم حتى يصل إلى موضع منه قتّال . فلا بد من التفتيش عن هذا السمّ ولا بد من وجوده . فتشوا عنه فى جثث الأطفال . أو فتشوا عنه فى أجسام الخنازير الغينية التى قتلها الداء . نعم .

الحياة الأدبية في لبنان

بقلم سامي الشقيفي

كتب الأستاذ على الطنطاوي في عدد سلف من « الرسالة » عن الحياة الأدبية في دمشق ، وفي عدد آخر تكلم الأستاذ عبد الوهاب الأمين عن الحياة الأدبية في العراق ، فكان من الانصاف لأتمام الفائدة أن نتكلم عن الحياة الأدبية في لبنان

ظواهر الحركة الأدبية في لبنان راكدة كما في سورية والعراق . فالصحافة الأدبية تكاد تكون معدومة ، أما التأليف والنشر فتمر الأسابيع والأشهر دون أن تخرج المطابع كتابا نفيسا ؛ وجمهور الشباب معرض عن المتوجات الأدبية العربية — الواقع أن إقبال الشباب في الأقطار العربية على الثقافة الأجنبية (وان يكن نفخ روحاً جديداً في الأدب العربي) قد أضر كثيرا بالحركة الأدبية خصوصاً في لبنان . فشبابنا المثقف حائر بين الأدب الغربي (العالي حقاً) والأدب العربي الناقص بازائه . يقبل على الأول لأنه يرضي ذوقه وثقافته ، ويجذبه الى الأدب العربي نوع من الشعور الوطني . في مصر والعراق وسوريا — وهي بلدان مسلمة — يتعلم الشبان القرآن منذ صغرهم فينشأون وفي نفوسهم ملكة عربية لا تستطيع الآداب الأجنبية أن تطغى عليها . وليس الأمر كذلك في لبنان . ولولا البكالورية اللبنانية التي توجب على الطلاب درس الأدب العربي لأهمله هذا النشء الجديد دون ما تبكيت

وقد كانت الحركة الأدبية عندنا في لبنان الى الأمس القريب تتجلى بقصيدة رثاء أو مدح أو مقالة شكوى أو كتاب لا يتعدى موضوعه المتبذل الفارغ ؛ ولكن من الانصاف أن نقول إن البعض من أدبائنا نشروا كتباً لا بأس بها وإن كان لا يرضى عنها الذوق الأدبي السائد اليوم ، ومن هؤلاء الأدباء أمين الريحاني صاحب (ملوك العرب — ابن سعود — فيصل الأول — قلب العراق) ، وعمر الفاخوري صاحب (غاندي — أناتول فرانس) ، ولبيب الرياشي وجميل بيهم ، وميخائيل نعيمه مؤلف (المراحل — جبران) ، وسلمى صائغ كاتبة (النسمات) ونظيره زين الدين مؤلفة (السفور والحجاب)

وقد أثر على النشاط الأدبي عندنا المجتمعات التي كانت تعقدها سيدات على جانب وافر من العلم والذكاء ، وهذه المجتمعات تشبه في أكثر النواحي صالونات أديبات فرنسا في القرن التاسع عشر . ومن أشهر سيداتنا الأديبات سلمى صائغ وحبوبة حداد وماري يني وجوليا طعمه . أما الصحافة التي يتجلى فيها النشاط الأدبي فقد كانت المجلات النسائية العديدة كالمرأة الجديدة والحياة الجديدة وميترفا والخدر — وكان الاعتقاد السائد بين الأدباء أن المثل الأعلى في الأدب هو أدب القرن السابع عشر الفرنسي (وإن كانوا لم يطلعوا عليه) ؛ والمتطرفون منهم كانوا يقتبسون من العصر الرومانتيكي — أما اليوم وقد نضج هذا الفوج من الأدباء الذين ذكرناهم ولا يرجى منهم أفضل مما أنتجوا ، فقد هدمت حركتهم الأدبية وتوقفت مجلاتهم وأفسحوا المجال لغيرهم . فعندنا الآن فوج من الأدباء الشبان « لا يزالون زغب الحواصل لم يطيروا بعد في الأجواء » كما قال أحد الكتاب ، إلا أنهم أثروا على الأدب في لبنان . منهم عصبة العشرة التي بثت روحاً جديداً في الأدب ووجهت خطواته على غرار الأدب الغربي الحديث ؛ ولكن حركتها ما عتمت أن سكنت ولما تؤد رسالتها على الوجه الأكمل الذي كانت ترجوه . وقامت أخيراً ندوة الاثني عشر تضم عددا من الشبان المثقفين ثقافة عالية يجتهدون للنهوض بالأدب في لبنان نهضة صحيحة من كل نواحيه ؛ والأدب في لبنان يتجه نحو القصة لأنها تحمل الدروس النفسانية ولأنها من أرقى صور الأدب ؛ ومن أبرز الذين يعنون بالقصة خليل تقي الدين وتوفيق عواد ورئيف الخوري ، وقد تطورت عقلية النشء الجديد من الأدباء على نحو الأدب الفرنسي الحديث حتى أن عندنا ما يدعونه الأدب العاري يبشر به فؤاد حبيش ؛ وعندنا الأدب الشعبي ينشره توفيق عواد ورئيف الخوري ؛ وهم يرون أن الأدب يجب أن يستمد مواده من كل مظاهر الحياة لا من خفايا النفس وعواطفها فقط

أما النقد الأدبي على الأساليب العلمية الحديثة فحامل لوائه في لبنان فؤاد البستاني الذي كان له الفضل الكبير في توجيه

نعم . أو فتشوا عنه في الحساء الذي تنمو فيه البشلة وتربو ... إن الرجل الذي يكشف عن هذا السم سيثبت ما عجزت أنا عن إثباته »

هذا هو الحلم الذي ارتآه لفلار ؛ هذه هي الرجية التي ارتجاها ؛ هذا هو المفتاح الذي وضعه لفلار في كف رو ، والذي فتح به رو ما استغلق على لفلار

في العدد القادم : كيف اكتشف رو سم الدفتريا أحمد زكي

الشبان نحو الثقافة العربيـة بنشره سلسلة « الروائع » ، وهو الآن يعد كتاباً عن عواصم الأدب يبحث فى تأثير المحيط على الأدب . فلكى يفهمنا الأدب العباسى ويطلعنا عليه يصف لنا بيئته فى بغداد ؛ وفضل فؤاد البستانى الأكبر أنه دون سواه من الأدباء يشجع من يرى فيـه سمات الأديب فيحثه على التأليف والنشر ويعضده بنفوذه الأدبى الكبير . وثمة نقادة آخر يمكننا أن نقارنه فى كثير من النواحى بالأستاذ أحمد أمين ، هو جبرائيل جبور الذى ينشر الآن كتاباً ضخماً عن عمر بن أبى ربيعة « دون جوان » العرب

وأما فى الشعر فقد ساد أول الأمر محافظون ينظمون فى الرثاء والمدح والغزل والفخر أيضاً لا يحيدون كثيراً عن أمراء الشعر فى الأعصر الماضية ، إنما كان يلمع فى شعرهم وميض من التجدد وتسمع فى أبياتهم رنة موسيقية عذبة . ومن أشهر الذين أجادوا أمين تقى الدين وبشاره الخورى . ثم جاء الشاعر الياس أبو شبكه فتطور معه الشـعر بما حمله اليه من نفس صادق وبخروجه عن أدب المناسبات والمواضيع الجوفاء ؛ وخطا يوسف غصوب بالشعر خطوة واسعة موفقة بديوانه (القفص المهجور) . وكان المرحوم أديب مظهر أول من أدخل إلى الشعر العربى نظرية الشعر الرمزى التى يعتنقها اليوم شعراء مجيدون حقاً كصلاح لبكى وأمين نخله وسعيد عقل الذى نشر مسرحية شـعرية موفقة جداً « بنت يفتاح » . لن أسهب فى الكلام عن الشعر الحديث فى لبنان ولكن أكتفى بالقول أنه من أرق ما عرفته الآداب العربية . وثمة شعر لبنانى محض يمثل فرعاً لنفسه هو الشعر العامى ، وقد ارتقى جداً وزعيمه الأول رشيد نخله ؛ ولقد تطور هـذا النوع من الشعر على غرار الشعر الحديث ؛ ويحدث هذا التطور ميشيل طراد فهو أيضاً ينهج نهج الشعراء « الرمزيين » ، والشعر اللبنانى هـذا يمتاز بشدة تأثيره على النفس

وكان من إقبال اللبنانيين على الآداب الأجنبية أنهم أضحوا يؤلفون بهذه اللغات . وكُتُب الريحانى وجبران بالانكليزية مثلاً مشهورة ؛ وهنالك كتب فى السياسة والحقوق باللغة الفرنسية . وآخر ما أنتجه اللبنانيون من دواوين شعر فرنسى كان له دوى بعيد فى فرنسا ونال لأجله بعضهم الجوائز من محافل الأدب العالية كشارل قرم الذى نال جائزة ادجار بو فى فرنسا لديوانه الجبل الملهم ، وغيره أيضاً

وينشط اللبنانيون جداً للتأليف باللغات الأجنبية ، ولنقل أفضل مؤلفاتهم العربية إلى الفرنسية ليطلعوا الغرب على ثقافتهم (وهى مظهر رقيهم) ويأخذوا مكانهم فى الأدب العالى

والخلاصة أننا لسنا متشائمين من حال الأدب عنـدنا . بل ما نراه حولنا من مظاهر النشاط الكامن يبشرنا بمستقبل زاهر وبأن الحركة الأدبية فى لبنان ستخطو خطوات بعيدة جداً

سامى الشقيفى

في تاريخ الفقه الاسلامي

المحاضرة الثالثة

للدكتور يوسف شخت

الأستاذ بجامعة كونيكسبرج ، والأستاذ بالجامعة المصرية

تكلمنا فى المحاضرتين السابقتين عن مسائل تتعلق بثلاثة أدوار قديمة من تاريخ الشرع الاسلامى ، وهى العصر الجاهلى — وليسمح لى بادخاله فى هذا النطاق الواسع — وعصر فقهاء المدينة السبعة ، والعصر الذى تكونت فيه المذاهب الكبرى . فالآن ، ونحن مستمرون على السير بموجب الترتيب الزمنى ، ننتهى إلى دور تندر مصادره ؛ فمن العجب أن نلاحظ أنه لم يبلغنا إلا القليل جداً من مؤلفات الزمن بين بدايات المذاهب (التى توجد لها مصادر معاصرة ولو لم تطبع كلها) والنهضة العظيمة التى بلغها علم الفقه فى القرن الخامس للهجرة ، ونتيجة هذا الدور لا بد أن تكون ذلك التنظيم والتنسيق للفقه الذى نشاهد أكمل مظاهره عند المذاهب الثلاثة فى وقت واحد تقريبا : للحنفية على يد القدورى ، وللشافعية على يد الغزالى ، وللمالكية على يد سيدى خليل . ويلوح أنه ليس مستحيلاً أن نتمكن من اكتشاف وثائق أكثر تبيانا لهذا الدور الغامض ، إذا ما وجدنا أن بعض مؤلفات أبى جعفر الطحاوى الفقيه المصرى المشهور وبعض الكتب الأخرى التابعة لذلك العصر قد كانت حليفة البقاء . وقبل أن يتحقق هذا الأمل علينا أن نقتبس معلوماتنا من الكتب التى تعالج اختلاف الفقهاء ، وهى كتب هدتنا المصادفة الغريبة إلى عدد غير قليل منها راجع إلى القرن الرابع الذى نبحث عنه ، وهذا مما يبرر بعض ملاحظات على هذا النوع من كتب الفقه على العموم . فقد ذكرنا فى محاضرتنا السابقة أول كتاب وضع فى هذا الفن وهو كتاب الحجج لمحمد بن الحسن الشيبانى . فهذا الكتاب يشترك مع بعض رسائل للشافعى فى غرض يحتمل أنه أحدث هذا الفن كله ، وهو مجادلة المعارضين التى تستلزم بطبيعة الحال إبداء آرائهم . وأما كتاب اختلاف الفقهاء لابن جرير الطبرى الذى ذكرناه أيضاً قبلاً فيحل فيه محل هذا الغرض شىء آخر ، هو المقارنة والموازنة بين أقوال المتقدمين تأسيساً لمذهب المؤلف نفسه ؛ وأن هذا الكتاب أولى أن ينسب إلى القرن الثالث وإن كان مؤلفه قد مات فى سنة ثلثمائة وعشر . وهذان النوعان من كتب الاختلاف ظلا قائمين إلى القرن الرابع ، وإلى جانبهما قد نشأ نوع آخر ، وهو نوع الكتب التى تثبت الآراء المتنافسة لغرض علمى محض . وأحياناً نجد المؤلف الواحد قد ألف فى الاختلاف أكثر من كتاب واحد . من ذلك أن الطحاوى الذى اسلفنا ذكره ألف كتاب شرح معانى الآثار ، وغرضه الراجح هو المجادلة بحيث أنه لا يذكر حتى أسماء خصومه ، ولكن له أيضاً كتاب اختلاف الفقهاء الذى يدلى فيه برأيه الشخصى على أثر عرض الآراء المختلفة والأدلة الدالة عليها . وقد ألف معاصره محمد بن ابراهيم بن منذر النيسابورى كتاب الاختلاف الذى يمثل هذا النوع الثانى ، كما ألف أيضاً كتابين من النوع الثالث وهما كتاب الاشراف على مذاهب أهل العلم ، والكتاب الأوسط فى السنن والاجماع والاختلاف ؛ وهذا الاهتمام العلمى المحض قد حمله أيضاً على أن يجمع فى كتاب الاجماع المسائل التى لا اختلاف فيها . أما المسائل المختلف فيها ضمن المذهب الحنفى فلدينا الروايات الثلاث لكتاب مختلف الرواية لأبى الليث السمرقندى ، وهو أيضاً من النوع الثالث العلمى المحض . وقد ذكرت كل تلك الكتب تفصيلا لأنها على العموم غير معروفة إلا للقلائل برغم أهميتها ، ولأنها لم تطبع بعد إلا شرح معانى الآثار للطحاوى . وأما أكثر الكتب المؤلفة فى هذا الموضوع فى زمن متأخر فى القرن الخامس وما بعده ، فلا يمكننا أن نوازى بينها وبين تلك المصادر القديمة ، ولا ينبغى أن نعتبرها وسيلة يعتمد عليها فى الحصول على معلومات جلية ، لأن تلك الكتب كثيراً ما تناقض نفسها وتناقض حقيقة الأمر ، أى أقوال المذاهب المشهورة . وذلك لأنها ليست قائمة على معلومات مباشرة بل يتوقف بعضها على بعض . كذلك كتاب الميزان للشعرانى ليس إلا تغييراً لكتاب « رحمة الأمة فى اختلاف الأئمة » للدمشقى ، وهذا بدوره مختصر لكتاب الاشراف على مذاهب

الاشراف لابن هبيرة إلى حدٍّ أن جميع الأغلاط الموجودة فى ذلك الكتاب تتكرر فى هذين . وينبغى ألا نؤاخذ ابن هبيرة بشدّة بهذه الأغلاط لأن كتاب الاشراف ليس إلا رواية مستقلة لفصل من كتابه الكبير المسمى بالافصاح عن معانى الصحاح ، وهو شرح مفصل للأحاديث الصحيحة ، ومضمون كتاب الاشراف كله وارد فى كتاب الافصاح شرحاً للحديث النبوى المشهور : اختلاف أمتى رحمة

إن أخبار المتأخرين من المؤلفين عن مبادئ مذاهبهم وأقوال الفقهاء الأقدمين يجب أن تقابَل على العموم بتحفظ شبيه بالتحفظ الذى ينبغى أن تقابل به كتب الاختلاف الأحدث عهداً ، حتى ولو كان أولئك المؤلفون من أصحاب المذهب الذى يتحدثون عن أئمته . فانا نشاهد فى المذاهب ابتداء من القرن الخامس افتقاراً للروايات فيما يتعلق بأقوال أصحابها الأولين ، وهو مما يجعل دراسة مؤلفاتهم الأصلية أحرى وأوجب . وإنى لأستمدّ أمثلتى من كتاب المخارج فى الحيل لمحمد بن الحسن الشيبانى السالف الذكر الذى لا ريب فى صحته مقارناً له بشرح السرخسى المتأخر لأقوال محمد بن الحسن المروية فى كتاب المبسوط . فالشيبانى يقول فى مسألة معينة على وجه الاجمال : « لا آمن أن يبرئه بعض الفقهاء . » ولكن السرخسى يعترف بأنه لا علم له عمن قال بهذا القول . والشيبانى يقول فى التحليل : « إذا قال واحد منهم هذه المقالة (أى لو قالت الزوجة تزوجنى فحللنى ، أو قال الزوج الأول تزوج هذه المرأة فحللها لى ، أو قال الزوج الثانى أتزوجك فأحلك لزوجك الأول) لم تحلّ للزوج بهذا النكاح الثانى » ؛ فالسرخسى فى تعليقاته على هذا الكلام يقول : إن النكاح الثانى عند الشيبانى صحيح ، لكن التحليل فى هذه الظروف لا يحصل ، فى حين أن النكاح الثانى عند أبى يوسف فاسد غير صحيح ؛ ولكن السرخسى فى موضع آخر ينسب القول الأول إلى أبى يوسف ، والقول الثانى إلى محمد بن الحسن الشيبانى . ويقول السرخسى فى مسألة أخرى إنه يُنسَب إلى أبى يوسف قولان متناقضان دون أن يستطاع اعتبار أحدهما سابقاً ، والآخر متأخراً ، فهو مع ذلك يجهد نفسه فى التوفيق بين القولين بوجه محتمل . ويقول السرخسى فى الحيل المستعملة لمنع الشفعة : « وعند محمد رحمه الله هو مكروه أشد الكراهة »

وهذا ليس صحيحاً لأن الشيبانى قد جمع أمثال تلك الحيل فى باب طويل من كتابه المتقدم ذكره نقرأ فيه كلاماً كهذا : « أرأيت رجلا يريد أن يشترى داراً ، ويخاف أن يأخذها جارها بالشفعة فكره أن يمنعه من ذلك فيظلمه ، وكره أن يعطيه الدار فيدخل عليه ما يُكرَه . هل عندك فى ذلك حيلة ؟ قال : نعم الخ » . وإليكم مسألة تدل على أن رأياً نُسب خطأ إلى أبى حنيفة قد ظفر بأن يصبح مسلماً به فى المذهب كله : فنقرأ فى الفتاوى العالمكيرية : « فاعلم بأن الوقف على قول أبى حنيفة رحمه الله لا يصح مضافاً إلى ما بعد الموت بطريق الوصية ، هكذا ذكر الخصاف رحمه الله ، ومحفوظنا أن الوقف عند أبى حنيفة رحمه الله صحيح إذا كان مضافا إلى ما بعد الموت أو كان موصى به » ومع ذلك فالخبر الذى ذكره الخصاف هو الصحيح ، لأن هذا يظهر من قول الشيبانى نفسه فى كتاب المخارج فى الحيل . وقد أمكن أيضاً أن تتسرب أخبار ملفقة إلى حواشى كتب الشيبانى حتى فى زمن قديم جداً ، وينبنى لهذا كله أن يتحاشى المرء قبول شهادة كتب أحدث عهداً فى أقوال الأئمة الأقدمين من دون تمحيص . وسبب تلك الأغلاط يرجع قبل كل شىء إلى تضاؤل الاهتمام بآراء فقدت أهميتها العملية بعد التدوين النهائى لأحكام فى المذاهب ، ويرجع أيضاً إلى الظن الطبيعى أن تلك الأحكام المدونة هى عين الآراء الشخصية للأئمة الأقدمين ، ويرجع أخيراً إلى استبدال عبارات مثل « فى قياس قول أبى حنيفة » بعبارات أخرى مثل « فى قول أبى حنيفة » فحسب ، وهو شىء نراه حتى فى الكتب القديمة جداً

وأخرى المسائل التى سنبحث عنها هى مسألة القانون العرفى فى بلاد الاسلام ، فبينا أن العلاقة بين الأحكام الشرعية والأحكام العرفية — كما رأينا — وجهة مركزية من تطور الفقه نفسه فى الأدوار الأقدم عهداً فان هذه العلاقة تصبح بعد ذلك عندما استقر الفقه فى صورته النهائية مطلباً مستقلاً . ومن بينات القوة الروحية العظيمة التى استمتعت بها الشريعة أنها بلغت حد فرض نفسها على القانون العرفى ؛ وإن كان هذا القانون قد بلغ من ناحيته أو كاد يبلغ حد احتكار العمل القانونى من الوجهة المادية ؛ وهذا بادٍ من أن الناس تحققوا وجود قانون عرفى يعارض كثيراً من الأحكام الشرعية ، وأنهم فسروا هذا من الوجهة

التاريخية ... جيال المتأخرة لم تبلغ شأن السلف الصالح ، ...مه الاخلاقية بمبدأ الضرورة التى أغنت عن العمل ...كام الشرعيـــة . وعلى هذا النسق الفكرى أوجد عالم مصرى معاصر فيما يتعلق بالخلافة التى تناءى تاريخها أصلا عن قواعد الشرع ، قواعد ثانوية موجهة إلى التطبيق العملى ولكنها مع ذلك مصنوعة على طراز تلك القواعد الشرعية . فأما مايتعلق بالفقه فقد رأى أهله أن يوفقوا بينه وبين العرف على قدر المستطاع مما أفضى فى التطور المتأخر للمذهب المالكى المغربى خصوصاً إلى أن يجيزوا عدة تصرفات عرفية لم تكن تعرفها الشريعة من قبل . أما العمل العرفى فكثيراً ماحاول أصحابه أن يحتفظوا بظاهر المطابقة للشريعة على الأقل ، فى حين أن حقائق الأمور كانت بعيدة عنها بعداً شاسعاً ؛ وهكذا أقاموا فى حالة أخذ السارق والسكران عند ارتكاب الجريمة حدود السرقة والشرب رأساً معتقدين اعتقاداً صميماً أنهم يطبقون الشريعة ولكن دون أن يعنوا بالاجراءات الدقيقة التى فرضتها الشريعة ، وهكذا ذهب بعضهم إلى حد ذبح مجرم يستحق الموت وفاقاً لقواعد ذبح الضحايا . وأنظمة المحتسب وناظر المظالم لا يراد بها إلا اجتياز الهوة التى تباعدت شقتها بين منطقة الشريعة ومنطقة الحياة القانونية العرفية ، فلهذا ليست من الشريعة المحضة ؛ ومنذ الزمن القديم كانت حاجة الشريعة محسوسة إلى أن يندمج فيها العرف القانونى وأن تتيح لمن يهمهم الأمر الوسائل لعقد تصرفات تقتضيها العادة مع مراعاة أحكام الشريعة الآلهية التى تجمع بين المخارج البسيطة والطرق الفقهية الأريبة . فبهذه الحيل يصل المرء من طريق تصرفات شرعيـة إلى نتائج تطابق الحاجات العملية ، ولكن لا تسلم بها قواعد الفقه رأساً ، فهى من جهة الفقه مخارج ومواضعات ، ومن جهة العرف جهود فى جعل العرف مقبولاً موافقاً للشرع

وقد أنشأ الحنفية هذا الفن من الفقه ومهدوه ، ونجد أن أبا يوسف ومحمد بن الحسن الشيبانى على رأس سلسلة طويلة من الفقهاء قد ألفوا فى الحيل ؛ وقد انتهى الينا كتاب محمد بن الحسن كاملا ، (وهو المسمى بكتاب المخارج فى الحيل الذى ذكرناه مراراً) ، ويشتمل على مسائل عديدة نقلها صاحبه من كتاب أبى يوسف . أما المذاهب الأخرى فالحيل فيها أقل شأناً منها عند الحنفية ، حتى أن الشافعى والبخارى الذى كان نفسه شافعياً وغيرهما قد حاربوا الحيل حرباً عواناً . ولم يمنع هذا أن المتأخرين من الشافعية قد أحسوا بالحاجة إلى تأليف كتب فى الحيل على مثال كتب الحنفية وأن ينسبوا إلى الشافعى نفسه من المخارج العملية ما قد ورد فى كتاب محمد بن الحسن الشيبانى ؛ وقد أفرد الحنبلى الكبير ابن قيم الجوزية للحيل بحثاً طويلاً ، وبرغم مناهضته للمكر ومنعه للفرار من أحكام الشريعة وصل فى بحثه إلى اعتبار كثير من تلك المخارج مشروعاً خاصة فى دائرة التصرفات التجارية . وأشهر كتاب فى هذا الباب هو كتاب الحيل والمخارج المنسوب خطأ إلى أبى بكر أحمد بن عمرو الخصاف الحنفى ، فالواقع أن كتابه الحقيقى ليس إلا رواية لكتاب المخارج فى الحيل للشيبانى ، وقد عنى الخصاف بأن يستبعد منها كل إشارة قد تدل على مؤلفه الأصلى ؛ والكتاب الذى اشتهر به هو تأليف عظيم الشأن لمؤلف مجهول عاش فى حوالى سنة أربعمائة ، وهو مصدر فريد فى بابه لمعرفة القانون العرفى الذى كان يعمل به فى ذلك الزمن فى العراق (كما نظن) يكشف لنا عن مستواه العالى واصطلاحاته الراقية ، وهذا القانون العرفى يميزه الدور الهام الذى يقوم به الاقرار ، فانه لا سبيل إلى الرجوع فيه ، ولهذا يصلح جيداً لأن يكون مبدءاً للنتائج القانونية المقصودة ، كما يميزه دور العدول الأمناء الذين يثق بهم المتعاقدان يقومون بالتوسط بينهما فى علاقاتهما التعاقدية ، وكما تميزه أيضاً كثرة استعمال الوثائق المكتوبة ، فكل هذه الخصائص توجد مجتمعة فى كتب « المواضعة » ، وهى وثائق يكتبها المتعاقدان وليست لها قيمة قانونية مباشرة ، لكنها تصلح لاثبات حقيقة الأمر فيما بين المتعاقدين من العلاقات التى لا يكشف عنها بل يسترها عادة عدد من التصرفات والاقرارات الموضوعة ؛ ويحفظ هذه الوثائق — أى كتب المواضعة — مع الوثائق الفقهية الحقيقية التى توضح وظيفتها عند عدل أمين يثق به المتعاقدان ويعمل هو بمقتضاها فيما بينهما ابتغاء معاملتهما بالعدل والانصاف ومنع أى منهما عن أن ينتفع بتصرف أو اقرار منفرد لما فيه ضرر لمصلحة الآخر . واليكم مثالاً قد يوضح كل هذا إيضاحاً تاماً : « قلت : رجل له على رجل مال ، فوكل رجلاً أن يتقاضى هذا المال ويستخرجه على أن له نصفه أو ثلثه ، هل

يجوز هذا ؟ قال : لا ، وإن وكله على هذا الشرط فاقتضى المال كان له أجرة مثله لا يجاوز بها ما جعل له ... قلت : فهل فى هذا من حيلة ؟ قال : نعم ، الحيلة فى ذلك أن يقر الذى باسمه المال لابن هذا الوكيل أو لرجل يختاره الوكيل بثلث المال بحق عرفه له ويوكله بقبضه . . . ثم يوكل الذى باسمه المال والمقر له بالثلث هذا الوكيل باستيفاء المال واستخلاصه فان خرج المال كان للمقر له الثلث من ذلك . . . . قلت : فان قال صاحب المال : أرأيت إن أقررت بثلث المال لمن يريد الوكيل فاذا وقعت الشهادة على ذلك لم يقم هذا الوكيل باستيفاء المال أو أحدث حدثاً تبطل به الوكالة فقد صار هذا الرجل شريكا لى فى المال بثلثه ، فما الحيلة ؟ قال : يعدلون كتاب الاقرار على يدى من يثقون به ويكتبون مواضعة بينهم تكون على يدى العدل يعمل بما فيها ويحملهم عليها ، فان خرج هذا المال بتقاضى الوكيل وقيامه كان لهذا الرجل الثلث ... وإن لم يخرج من المال شىء أو لم يقم بذلك أو أحدث حدثاً تبطل الوكالة به لم يكن للرجل المقر له بثلث المال شىء ورد العدل منهم الكتب على من يجب ردها عليه ، ويحكون فى المواضعة أمرهم كله ليعمل العدل بينهم بذلك »

والمصدر الثانى الرئيسى لمعرفة القانون العرفى فى بلاد الاسلام هو الشروط والوثائق . ويوجد الى جانب الدور الهام الذى تؤديه الوثائق المكتوبة فى باب الحيل كتب كثيرة فى الشروط عند الحنفية كما هى موجودة عند المالكية والشافعية . وجدير بالذكر أن أكثر المؤلفين لكتب الحيل من الحنفية ألفوا أيضاً فى الشروط ، وأنهم من جانب آخر قد اشتغلوا غالبا بالوصايا والأوقاف أيضاً بصورة تجعل من الممكن أن يستبين المرء فى الكتب الحنفية على مرور القرون ميلا ظاهرا إلى البحث عن الموضوعات ذات الأهمية العملية ، وتلك الأهمية العملية لكتب الشروط ناتجة عن نفس وجودها ، ذلك أن الفقه لا يقبل إلا الشهادة الشفوية ولا يستلزم وثائق مكتوبة ، وذلك الصلح وحده لم يفلح فى جعل الشروط فى ذلك المركز العظيم الذى هى فيه من عمل الفقه . وترجع عادة تحرير التصرفات إلى العصر الجاهلى ، فقد ظهر أن الوثائق فى ذلك الزمن لم تكن محض مذكرات يستعين بها الشهود (كما هى الحال فى علم الفقه) بل كانت وثائق مستقلة تنطق بمضمونها لا ريب أنها لم تزدوج بالشهادة الشفوية إلا فى مرحلة ثانوية ؛ وقد أقر القرآن هذه الحالة فى نوع من العقود فى الآية التالية : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب ، وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا ، فان كان الذى عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر احداهما الأخرى ، ولا يأب الشهداء إذا ما دُعوا ، ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله ، ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ، وأشهدوا إذا تبايعتم ، ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وإن تفعلوا فانه فسوق بكم ، واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم . وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة ، فان أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه ، ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه والله بما تعملون عليم . » وفى آية أخرى ذكر القرآن الوثائق المكتوبة فى اعتاق الرقيق على أنها شىء معروف : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً . » حتى الاصطلاح الخاص بالاعتاق التعاقدى فى مصطلح الفقه ، وهو الكتابة ، يدل على أن ذلك كان مكتوباً فى الغالب على الأقل ؛ والأمر السابق الذكر وهو أن الشروط والوثائق تقوم فى تطبيق الشريعة العملى بدور أهم بكثير مما يعينه لها علم الفقه — ذلك الأمر لا نفهمه إلا ببقاء عادة ثابتة قديمة تقتضى تحرير العقود بالكتابة ؛ ومن الراجح أن تلك العادة الموجودة فى القانون العرفى العربى الجاهلى كانت قد تأثرت بنفوذ التمدن العراقى ، فان العراق مشهور بالدور الهام الذى قامت به الوثائق المكتوبة فى حياته القانونية والأدبية منذ زمن قديم جداً . أما الوثائق التى تبينها وتوضحها كتب الشروط ، وكذلك الوثائق الأصلية التى احتفظ بها فهى تتفق بطبيعة الحال فى مضمونها المادى مع أحكام الشريعة الاسلامية بحسب الظروف والامكان ، وخصائصها البارزة لا تظهر إلا فى صيغها التى تغيرت تغيراً كبيراً على كر القرون ، لكنها كانت

دائماً . بقواعد فنية صارمة . وإليكم خاصة جديرة بالذكر فيها كتب الشروط القديمة بأجمعها : قد تلونا آنفاً آية قرآنية تنص على أن « الذى عليه الحق » يكتب ويمل ؛ وأما فى كتب الشروط القديمة فالقاعدة الأساسية هى أن يملى الكتاب المدين (أو من يقوم مقامه من المتعاقدين) على المدين (أو القائم مقامه) وأن يقرّ هذا بصحة الوثيقة ويُشهد على ذلك الشاهدين

وثمة مصدر ثالث لدراسة القانون العرفى ، وهو التشريع المدنى الدنيوى فى بلاد الاسلام . ومن الحق أن الشريعة الاسلامية لا تعترف بتشريع مستقل يقوم إلى جانبها ، وتلك التشريعات المدنية حتى فى أوائل العصور الحديثة لم تزعم أكثر من أن تكون ملحقات بالشريعة فى الدائرة التى سمحت لها بها ؛ والواقع أن تلك التشريعات كثيراً ما جاوزت هذه الحدود . وأشهر مثال لمثل تلك التشريعات هو ما يسمى (بالقانوننامجات العثمانية) ، فانه بينا كانت أكثرها تتصل بمسائل إدارية ، قد ردتها الشريعة إلى اختصاص الدولة ، فان أول قانون من هذه القوانين وهو (قانوننامه) السلطان محمد الفاتح ينظم العقوبات أيضاً والأحكام الشرعية فى الواقع لم تنفذ فى تلك المنطقة أحياناً كثيرة ، وتفترض هذه القانوننامه أن القصاص يمكن إجراؤه بخلاف الحدود ، وقد وضعت بدلامنها قانوناً جنائياً كاملا يختلف أصلا عن أحكام الشريعة ، وإن كان يذكرها فى مواضع عديدة ويستعير منها بعض القواعد الأساسية ؛ ويمتاز هذا القانون الجنائى بالدور الهام الذى تؤديه الغرامات المالية المختلفة المبالغ تبعاً لثروة المذنب . حتى الزانى بشرط أن يثبت عليه البينة وفاقاً لقواعد الشريعة يعاقب عليه بغرامات مختلفة القدر على حسب كونه متزوجاً أو غير متزوج (وتهمنا ملاحظة التعديل الذى أدخل بهذا على فكرة الاحصان فى الشريعة) والأرقاء لا يدفعون إلا نصف المبلغ المفروض على الأحرار ، والسكر أيضاً (وهو يقوم مقام الشرب فى الشريعة) لا يعاقب عليه إلا بالتعزير ؛ وهو يُترك فى الشريعة لتقدير القاضى ، وأما فى هذه القانوننامه فالتعزير دائماً ضربات بعصا مقرونة بغرامة مالية ، ويطابق نفس هذا التدبير على السرقة ولا يقام الحد إلا فى سرقة الخيل ؛ ويكون فى هذه الحالة إما قطع اليد وإما غرامة باهظة جداً ، ولا بد من أن هذه الجريمة كانت تعتبر خطيرة بصفة خاصة ؛ وحتى أن هذا القانون الجنائى يراد به أن يحل محل القسم المطابق له من الفقه تماماً لا إكماله فقط ، لكنهم على كل حال يتحاشون أن يقولوا بهذا صراحة ويطلقون عبارات من قبيل « السياسة فى مقابلة الجنايات » أو « بدل السياسة » على إبدال الحدود بالغرامات المالية ؛ وقد اتخذت هذه القانوننامه أنموذجاً للقوانين العثمانية التى تعالج نفس الموضوع

وعلاقة أخرى بين الشريعة الاسلامية والتشريع المدنى ، تخالف كل ما تقدم مخالفة تامة ، توجد فى الدور الأخير من تاريخ الشرع وهو دور تطوره المعاصر ، وحسبنا أن نذكركم بالتعديلات التى أدخلت منذ سنة ألف وتسعمائة وعشرين على الأحوال الشخصية فى مصر ؛ ولسنا نريد أن نبحث الآن عن تلك الظاهرة المهمة للحياة القانونية المصرية لأن الوقت الذى على لكم قد انتهى . وإنما نستشهد بها هنا كدليل على أن العلم الأوربى الذى يشتغل بتاريخ الفقه الاسلامى لا يتناول الأزمان الماضية فقط ، بل يجهد فى استيعاب الحياة الحاضرة أيضاً ، وأن موضوعه الواسع ليس ميتاً جامداً بل لا يزال قوياً متطوراً .

فان كنت قد وُفقت إلى إطلاعكم على شىء من الروح العلمية الخالصة المهيمنة على دراساتنا هذه فقد حققت بعض الغرض من هذه الأحاديث كل التحقيق

يوسف شخت

صورة من الحياة العلمية فى مصر

٣ – تقى الدين السبكى

بقلم محمد طه الحاجرى

— ٣ —

وبعد أن قضى من الشام حاجته عاد إلى مصر سنة سبع ، فاستوطن القاهرة ، وانقطع فيها لتصنيف الرسائل والكتب ، وتعليق الشروح ، والجلوس للطلاب . وقد ألقيت اليه رياسة الشافعية ، فجعلت الأسئلة والاستفتاءات ترد عليه من أنحاء الشرق العربى كثيرة متلاحقة ، وهو يجيب عليها ويفتى فيها . وكان من عادته — كما ذكر ابنه تاج الدين — أن يشرك فى بحثها ومناقشتها أبناءه وتلاميذه ، إلا أن تكون متعلقة بأحوال المتصوفة وأهل الباطن فيكتم أمرها وأسماء أصحابها وما يراه فيها . إذ كان ذلك خارجا عن حدود النظر العقلى والاستدلال المنطقى

وقد لبث على ذلك — منذ عودته من السماع بالشام إلى رجوعه إليها قاضى قضاتها — اثنين وعشرين عاماً ، حج فى أثنائها ثم ذهب إلى المدينة لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك سنة ٧١٦ هـ

ولم يل تقى الدين فى هذه الفترة عملاً يتصل بالسلطان ، أو أمراً من أمور الدولة ، على كفايته ومقدرته ، فقد كانت تنقصه المرونة الخلقية التى تقضى بالزلف والتودد ، ثم بالمصانعة والمداهنة والاغماض فى الحق أحيانا ؛ ولهذا كانت مادة عيشه تافهة ضيقة مهددة بما تقضى به شهوات الأمراء وغايات المزدلفين ؛ فكل ما نعرف من هذا انه تولى مشيخة جامع ابن طولون فترة من الزمن ، وكان يأتيه منها رزق زهيد مما وقفه عليه الملك المنصور حسام الدين لاجين(١) (٦٩٦ — ٦٩٨ هـ ١٢٩٦ — ١٢٩٨ م) ولكن هذه المشيخة لم تلبث أن طارت من يده وأخذت منه سنة ٧١٩ (١٣١٩ م) . وله فى هذا المقام شعر نورد شيئا منه ، لأنه — مع ركاكته — يدل على روحه العلمية الخالصة التى تضع العلم فوق كل اعتبار :

كمال الفتى بالعلم لا بالمناصب ... ورتبة أهل العلم أسنى المراتب

.. فلا تعدلن بالعلم مالاً ورفعة ... وسمر القنا أو مرهفات القواضب

وهب أدبرت دنياك عنك فلا تبل ... فعنها اعتد عوضت صفو المشارب

فما قدر ذى الدنيا ؟ وما قدر أهلها ؟ ... وما اللهو بالأولاد أو بالكواعب ؟

اذا قست ما بين العلوم وبينها

بعقل صحيح ، صادق الفكر ، صائب

فما لذة تبــــقى ، ولا عيش يقتنى

سوى العلم أعلى من جميع المكاسب

وهكذا كانت روحه العلمية القلابة التى كان يتعزى بها عما فاته من متاع الدنيا . وقد ظلت هذه الوظيفة محتجزة دونه حتى عام ٧٢٧ (١٣٢٧) فعادت إليه وبقيت فى يده إلى سنة ٧٣٩ هـ حينما اختير لقضاء الشام

وسبب آخر من أسباب الحياة المحدودة كان فى يده ، ولم يخل كذلك من شهوات العابثين فى انتزاعه : ذلك هو وظيفة التدريس بالمدرسة المنصورية ، وكانت مسندة أول الأمر إلى قاضى القضاة جمال الدين الزرعى ، ثم عين قاضى قضاة الشام ٧٢٣ (١٣٢٣ م) فحل تقى الدين السبكى محله ، وكان جديراً بذلك . ولكن الزرعى لم يطل فى قضاء الشام مقامه ، فلم يلبث عاماً حتى عزل عنه . وكان صديقاً لأرغون(١) نائب المملكة المصرية فى ذلك الحين ، فبلغه ذلك وهو بالحجاز ، فشق عليه أن يحرم صديقه مكانه فى مصر والشام ؛ واستشاط غيظاً وحنقا على تقى الدين ، وأقسم ليزيلنه عن مكانه ، وليعيدن إليه صاحبه ، متى عاد إلى مصر ؛ وترامت بذلك الأخبار إلى الشيخ ، ولم يكن له ما يكفل رزقه غير هذه الوظيفة ، وكاد يصبح ضحية شهوة جامحة ، لولا أن أرغون ما كاد يصل إلى مصر حتى قبض عليه فى بعض ما كان يسود ذلك العهد ؛ ففل بذلك من حده ، ووقى الشيخ شر نزوته وكيده

هذا كله والعهد عهد الملك الناصر ابن قلاوون ، وهو خير

(١) انظر ما كتبه المقريزى عن تجديد جامع ابن طولون وعمارته (ج : ٢ ص : ٢٦٩ ط بولاق)

(١) هو أرغون ، الناصرى غير الكاملى الذى سيجىء ذكره . وقد تولى نيابة المملكة المصرية من سنة ٧١٢ إلى سنة ٧٤١ . انظر ابن اياس

عهـ ... مصر ، وأقلها خضوعا للنزوات الطائشة

وقبل أن ندع هذا الدور من حياة تقي الدين السبكي ، نرى أن لابد من الاشارة إلى مجهود من مجهوداته العلمية الموفقة ، قام به في تلك الفترة ، وقد رفع كثيراً من شأنه ، وكان له أثر غير صغير في حياته ، فيما نحسب ، ذلك هو رده على أبي العباس ابن تيمية في مسألة الطلاق ومسألة الزيارة . وقد كتب رده على كل من المسألتين في كتابين : أحدهما موجز مجمل ، والآخر كبير مفصل ؛ ويظهر أنه قد أبدى في رده مقدرة فائقة في النقد والبيان ، وأبان عن سعة اطلاع وحضور بديهة ، كما بعد عن الشطط والتجريح ، والتزم جانب الانصاف والمدلة ، مما دعا إلى إعجاب الأشاعرة به ، وإكبار ابن تيمية نفسه له ، وثنائه عليه فيما كتبه دفعا لنقده

وأحسبني لا أبعد عن الصواب إذا زعمت أن هذا الرد كان السبب في توجه نظر السلطان إليه ، واختياره لقضاء الشام ، بعد أن لبث ذلك المنصب لعبة للأهواء منذ مات جلال الدين القزويني سنة ٧١٩ (١٣١٩ م) حتى سنة ٧٣٩ هـ . وإصراره على ذلك إصراراً ذهبت معه كل محاولات الطويلة في التملص من هذا التقليد ، ووهن معه كل ما تذرع به لقاء هذا الأمر الذي يقدر عانيته ، ويعرف حق المعرفة خطورته

ذلك أنه وإن كان قد ذهب في رده مذهباً علمياً خالصا فقد تناول به مسألة تعني أولي الأمر كما تعني العلماء ، فان ظهور ابن تيمية في الشام بمذهبه الذي ينقض مذهب الأشاعرة ، وانتصاره له بكل ما أوتي من قوة في البيان والمناظرة ، فرق أهل الشام فرقتين ، واجتذب إليه طائفة غير قليلة من أعيان العلماء أمثال المزي والذهبي والبرزالي : خرجوا على الأشعرية وهي المذهب الرسمي للدولة منذ كان الأيوبيون إلى ذلك العصر ، بعضهم في صراحة وجلاء ، وبعضهم في تنكر واستخفاء ، وسنرى فيما يلي بعض الظواهر في هذا مما يؤيد ما نذهب إليه من أن اختيار السبكي لقضاء الشام كان منظوراً فيه إلى هذه الحالة ، مرجواً منه القضاء على هذه الفتنة .

— ٤ —

وهكذا تولى السبكي قضاء الشام في ١٩ جمادى الآخرة سنة ٧٣٩ (٢ يناير سنة ١٣٣٩) ، فغادر مصر إليها ، وانتقل بذلك من حياته البسيطة الساذجة ، إلى حياة مركبة معقدة ، وترك بيئته الهادئة الوادعة التي ترفرف عليها روح العلم ، وتسري فيها نفحات الأبوة الكريمة ، إلى ذلك المضطرب الواسع الذي يموج بشتى النزعات ومختلف النزوات ؛ وتسوده روح خبيثة في مذاهب يزعمون لها صفة الدين تقتتل ، وشهوات باسم الحكم تفرض وتنفذ ، وأين يذهب السبكي في مثل هذا الجو ؟ وهو المطبوع على الصراحة في الحق ، والصلابة في الخلق ، والاستقامة في الرأي ، إلا أن يصبح غرضا للمعاندة والمضاجرة والشهوات الخبيثة الفاجرة ؛ ولهذا نجد ابنه تاج الدين يقول في هذا الصدد بلهجة مريرة : « فقبل الولاية يالها غلطة أف لها ، وورطة ليته صمم ولا فعلها » وسنرى فيما يلي صوراً مختلفة لهذه الحالة

وإنما نعرض الآن حياته العلمية في الشام عرضا موجزاً ، فنلاحظ أن أغلب مصنفاته كتبها في الفترة التي قضاها بمصر كما نص على ذلك ابنه ، ولا ريب أن هذه الحياة الجديدة بما تفرضه من تكاليف ومشاق قد شغلته عن العلم بعض الشيء ؛ هذا إلى كبر سنه ، فقد تولى قضاء الشام وهو في حدود الستين ، فكانت دواعي التأليف قد فترت في نفسه ، حتى لنراه في أواخر حياته يميل إلى التأمل ، ويجنح إلى « المراقبة » ، ويزهد فيما كان مشغوفا به من قبل من المناظرة العلمية على قواعدها المقررة

على أنه قد كتب في الشام أبحاثا جليلة يتجلى فيها عمق التفكير ونفاذ البصيرة والاحاطة ، ونجد بعضا منها في ثنايا كتب ابنيه : بهاء الدين أبي حامد أحمد بن علي السبكي ، وتاج الدين عبد الوهاب صاحب الطبقات

ثم إنه ما كاد يصل إلى الشام حتى جلس للتحديث في « الكلاسة » وسمع منه أئمة الحديث في عصره كالمزي والذهبي والبرزالي ، وقرأ عليه جميع معجمه ابن ابن عمه الحافظ محمد بن عبد اللطيف السبكي . ثم تولى سنة ٧٤٢ (١٣٤١ م) مشيخة دار الحديث الأشرفية خلفا للحافظ جمال الدين أبي الحجاج المزي ، وفي سنة ٧٤٥ (١٣٤٤ م) تولى التدريس في « الشامية البرانية » خلفا لأستاذها شمس الدين ابن النقيب ، كما تولى خطابة الجامع الأموي وباشرها مدة لطيفة

(يتبع) محمد طه الحاجري

عند بحر مويس شتاء

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

كم خشع العابر من قبلنا … على ضفاف النهر وقت الأصيل

أو فى مساء إذ ترى ظلمة

قد عششت فى الدوح دوحا كغيل

وربما كنا الأولى قد مضوا … وإن نأى الظن وعز الدليل

وما الذى ينأى بنا عنهمُ … من منظر أو خاطر أو ميول

كم منظر تحسب إنَّا بدا … من أخذة الفكر ووهم الذهول

انك — والقلب خبير به — … أجلْتَ قِدْما فيه لحظ المجيل

الدوح كالمفكِر فى هدأة … إذ سكن الجو سكون الكهول

أو ثاكلات طال ثكل بها … فَسَكَنَّتْ من شجوها والعويل

أو صمتت من طول ما عُمِّرَتْ … كصمتة الشيخ الوقور الجليل

والنهر كالزئبق فى لمعة … وركدة ما إن بها من مسيل

عهدته فى صيفه لؤلؤا … لو أن للؤلؤ سيلا يسيل

والسحب كالأشجار قد صرت … فى الأفق تبدو مثل ظل ظليل

أو قطع من حلم غامض … أو كثار النقع أو كالطلول

والجو قد روّع من قره … كأنه قر نمات بصول

أنفاس ثغر الموت فى قره … تخرج من ثغر لجسم نحيل

والأرض غبراء سوى ما بدا … من عشبها منتثرا كالفلول

كأنما الدجن غدا تربها … وتربها الجهم كدجن سديل

تشابهت فى اللون عهدى بها … فى صيفها واللون غير القليل

عهدى بها كالخود فى عرسها … زاهية الأصباغ شتى الذيول

خِيلَ حدادا إذ دجا لونها … وهو كعقب العرس حتم البديل

خلاعة للصيف خلابة … وفى الشتاء الحسن جم الفصول

تباين الحسنان فى روقة … لكنه زاد جلال الجليل

كم متعة جاءت بها رهبة … كرهبة البرق وعادى السيول

لحن على الماء

بقلم العوضى الوكيل

ركبت زورقاً على النيل ، ومعى ثلاثة من أصدقائى ، وهب الله أحدهم نعمة حسن الصوت وقد غنى صاحبنا فأجاد ، وما منا إلا من طرب له واستعاد ....

وهذه القصيدة صدى هذا الغناء :

تَغَنَّ ، فما أحلى أغانيك فى الماء … لها فى نواحيه هواتفُ أصداء

تغن بألحان تواكَبْنَ فى النُّهى … قديماً ولا تمهل سكونى واصغائى

تغن فان الماء حولك ظامىء … إليك ، فبلل بالغناء صدى الماء

ترقرق كالنسم الوديع هنيهةً … وغضّن منه السطح فى غير اغضاء

كأن له نفسا اليك مشوقةً … وروحاً يتيه اللحن منها بأعضاء

ينازع فى الأنغام جوّا مُشَعْشَعاً … بها ، لم تخالطه نواشز ضوضاء

***

ألا غَنِّنَا .... وابسط أغانيك كلها

بصوت كنفح الزهر ، أو طلعة البدر

حماداك أن نصغى اليك بمهجةٍ … تفيض بآلام شداد يدا الدهر

تثير بها ما لم ترج مثاره … وتحيى بها ما لم يَدُرْ لك فى فكر

وتبعث فيها ماضيا قد نسيته … ولكنه لم ينس عهدى وما أدرى

تعيد بها من دارس العمر حقبة

تصورها الأوهام ... ليست من العمر

ألا غننا ... حسبى من اللحن نغمة

تفيض على الأرواح كالنهل الغمر

***

نعم ... وامزج الماء الصفى بلحنك الـ

صفى فان اللحن فى الماء ذائبُ

فان نحن أومأنا اليه برشفةٍ … فبالنور صرفاً قد تمتع شارب

وموجان من ماء ولحن تواكبا

ويا حبذا فى الحس هذا التواكب

---

* من ديوان « تحية الحياة » الذى يصدر قريباً

يا جيرةً ضمدوا جراحة جلّق | إذ جُرحها يتلمّسُ التضميدا
لله نصرتُكم أخاكم إنّها | قد أصبحتْ مثلاً يسير شرودا
كانتْ على القربى الملحّة آية | جُلى ، ورَمزاً ساطعاً مشهودا
قُلْ للغوىّ يرى العروبةَ أنهراً | لا تلتقى ويرى الوفاقَ بعيدا
إن العروبة فى المواطن كلها | ضمِنَتْ لها آلامها التوحيدا
جسدٌ يئنُّ إذا اشتكى عضو به | من ذا رأى شِلواً يعيش وحيدا

***

يا يومَ عادَ المصطفونَ إلى الحمى | ضَمِنَ الزمانُ لجدكَ التخليدا
فى جيدهذا الشرق كنت قُلادة | وأراك فى عمر الجهاد فريدا
ما مرَّ يوم أو مررت بخاطرى | إلا سطعت لناظرىَّ جديدا
يا يوم عادوا والجلالُ يحفُّهم | لا السِّجن قدهابوا ولا التشريدا
طلعوا علينا كالكواكب رفعة | وهفوا على هام الرِّجالِ بُنودا
سل مُقلتى لما بدت رُكبانُهم | هل بُدِّدت عبراتُها تبديدا
واسأل فؤادى هل أهلّ مصفّقاً | أو هل شدا فى رَكبهمْ غرِّيدا
زَحَفَتْ دمشق تحوطهم بقلوبها | وُلداً وأشياخاً تَدِبُّ وغيدا
تتزاحمُ العبَراتُ فى آماقِهم | فرحاً فتنثرُ لؤلؤاً منضودا
كدُّوا الخناجرَ فرحةً بإيابهم | وتدافعوا مثل الأتىِّ وُفودا
أرأيتَ كيف طغى العُبابُ على الثرى
أو كيف تحتضِنُ الرؤومُ وليدا

***

يا من رأى المأسورَ عاد مكرّماً | والآسِرَ المأفون فرَّ طريدا
يطوى البحارَ السود يطلب ملجأً
وَحِمىً وَيضربُ فى البلاد شريدا
أنى تحوّلَ فالسماء صواعق | والأرضُ فاغرةٌ هُوى ولحودا
وأمامه أنى تقلبَ نِسوةٌ | يخمشن أجياداً زَهَتْ وخدودا
. . . .
ذُقْ ما يذُوقُ الظالمون ! ومن يُهِنْ
أنفَ الشعوبِ يهُنْ وَيَقض كميدا

***

وفد الشآم ويا رسول جهادها | أنى حللت ترَ القلوب مهودا
الله والشعب المبارك عزمه | قد أولياك النصر والتأييدا
فاسحب من الحب الثمين سوابغاً
واصحب من العطف العميم جنودا
واهبط رباعاً من (فَرَنْسَةَ) خُضِّبت
بدَم الأباةِ سباسباً ونجودا
دكّت حصونَ الظالمين سيوفُهم | والظلم تذروه السيوف بديدا
جِئْهُمْ فَبُثْهم السلام وقل لهم : | « يا من نشرتم للحقوق بنودا
يا موقدين لهيب أروع ثورةٍ
تركت عروش المالكين حصيدا
والمرسلين على الظلوم صواعقاً | والباذلين مع الضعيف جُهودا
لا تكتبوا بشبا السِّنان عهودكم | فالحبُّ أصدق موثقاً وعهودا
ضِنوا بهذا الشعب يوماً أن يهى | إعجابه بنضالكم ويبيدا »

***

يا وَفدُ سر يحمى الاله وحفظه | واستنجز الأمول والموعودا
وارجع إلينا بالحياةِ مظفّراً | واسطع بشائر فى الحمى وسعودا

أمجد الطرابلسى

القصص

دراسة من إسخيلوس

المتضـــرعات

The Suppliant Women

للأستاذ دريني خشبه

مقدمة :

كتب إسخيلوس هذه الثلاثية الرائعة وهو شاب فى مقتبل حياته ، ولم يبق منها ، وا أسفاه ، غير الدرامة الأولى ، أما الثانية والثالثة فما تزالان مفقودتين . وقد استطاع العلماء الجهابذة من الألمان الحصول على مغزاها ، وبذا تمت لنا الثلاثية بموضوعها وإن لم تتم بمبناها . والدرامة تنبع من أسطورة يو التى نشرتها الرسالة آنفا والتى تتلخص فى أن زيوس كبير أرباب الأولمب أحب الفتاة يو حباً مبرحا فكان يختلف إليها سراً مخافة أن تضبطه وإياها زوجه حيرا فيحدث ما لا تحمد عقباه ... ولكن ... وقع ما خافه زيوس ... فبينما كان يلهو بحبيبته مرة إذ لمح زوجه مقبلة ... فأسقط فى يده .. وسحر يو بقرة بيضاء ... وراح يدعى أنه يرعاها ... ولكن الحيلة لم تنطل على حيرا فسألته أن يمنحها البقرة علامة على حبه لها ، فأجابها ... وناطت بها حيرا خادمها الفظيع آرجس ، ذا المائة عين يحرسها ويلحظها أنى سارت وأيان توجهت .. وذاقت يو الأمرين من هذه الحال حتى لقيت أباها رب أحد الأنهار مرة فتحدثت إليه بما كان من أمرها مع زيوس .. ولم يطق سيد الأولمب صبراً ، فأنفذ ولده الصناع هرمز إلى آرجس ليحتال عليه ويقتله وينقذ يو من شره ... وأفلح هرمز فى مهمته ، ولكن حيرا نقمت على البقرة وسلطت عليها ذبابا ساماً مائتى يقرصها ويعضها حتى تصالح زيوس وحيرا ، ورجاها أن تطلق سراح يو منقبات ، على شريطة أن تنطلق من هيلاس كلها !! وقبل زيوس ، وأعاد إلى يو صورتها ... وأنفذها إلى ... شطآن مصر ... حيث تزوجت بفرعونها العظيم ... وكان من نسلها هؤلاء النسوة المتضرعات ، اللائى يتحدث إسخيلوس عنهن فى هذه الثلاثية

ونحن نعتمد فى تلخيص الدرامة الأولى الباقية على ترجمة لويس كامبل (طبعة إكسفورد) الشعرية . أما الدرامتان الأخريان المفقودتان (مصلحات فراش النوم) و (دانايديز) كما ذكرها الأستاذ جلبرت مورى فى تاريخه عن الأدب الاغريقى (طبعة أبلتون ص ٢١٧) فسنلخصهما معاً معتمدين فى ذلك على الأستاذ هـ . أ . جرير ص ١٤٢

— ١ —

يرجع بنا إسخيلوس إلى عصر موغل فى القدم ، حتى ليكاد أن يكون عصرا خرافياً

ذلك هو العصر الذى كان فيه إيجبتوس أميراً على مصر السفلى ... إيجبتوس الذى لا يعرفه التاريخ ...

وكان لهذا الأمير خمسون ابناً ، وكان لأخيه دانوس خمسون ابنة ، فأراد إيجبتوس أن يزوج أبناءه الخمسين من بنات أخيه الخمسين ، برغم ما فى هذا الزواج من مخالفة لشرائع الدين فى مصر فى هذا الزمان ، ذلك أن هذا الدين الذى كان يبيح زواج الأخ من أخته ، كان مع ذاك يحرم زواج ابن العم من بنت العم ، ويعتبره — لو تم — نوعاً من الزنى

— ٢ —

لذلك صمم دانوس ، التقى الورع المتعبد ، المتفانى فى طاعة الآلهة ، ألا يتم هذا الزواج

وسبب آخر جعل دانوس يغلو فى تصميمه ، ويتشبث به ، برغم ما يجره عليه عداوة أخيه ، أمير مصر العظيم ، من بلاء وأرزاء

ذلك أنه كان لا ينوى تزويج واحدة من بناته الخمسين قبل أن يودع الحياة ، وقبل أن يجيئه الموت ، وقبل أن يجرع كأس المنون حتف أنفه ! وكيف ؟

لقد ذكر دانوس ، حين كلمه أخوه الأمير فى بناته الخمسين ، تلك الرؤيا المفزعة التى أريها إذ هو شاب فى غضارة الشباب ، فأقضت مضجعه ، وطمست مباهج الحياة فى قلبه ، وتركته لا يفكر إلا فى هذه النهاية المريرة التى تدحرجه إلى شفاها الأيام ؟ ويقذف به فى هاويتها الزمان الغدار ! !

رأى دانوس ، إذ هو نائم فوق ضفاف النيل السندسية المعشوشبة ، فى ليلة مقمرة من ليالى الصيف الجميل الغفى ، أن

زوجاً من أزواج بناته يقتله ، ويغمد خنجره ذا القبضة الذهبية في أحشائه ، ثم يقذف بجثته الممزقة بعد ذلك في النيل ، فتحملها أواذيه الى اليم المصطخب ، الى حيث لا يدرك لها قرار !!

« إذن لن أزوج واحدة من بناتي !! »

وذهب في الأرض على وجهه يأتي الكهان وسدنة الآلهة ليفسروا له الرؤيا ، فما زاده لقاؤهم إلا ترويعاً ، لأنهم جميعاً أكدوها له ... وإذن ... « فلن أزوج واحدة من بناتي !! »

— ٣ —

وألح ايجبتوس على أخيه ، ولكن دانوس ظل يماطله .. ويماطله

وأعد دانوس مركباً كبيراً حمل فيه بناته ... وأبحر في ظلام الليل ... إلى مملكة جدته ... جدته يو ... حبيبة زيوس سيد الأولب وكبير الآلهة .... ليبارك ذراريها ، ويسهر على أحفادها !

وقد ضرب في البحر ، ولعبت بمركبه الأنواء ، وطفق يلاقي من مور اليم وتناحر الموج ما أرخص له الموت . . . لولا أن استوى على شاطئ آرجوس ، فنزل وقد بلغ منه الأين ، وحطمه النصب

— ٤ —

وسار ببناته حتى بعد قليلا عن الشاطئ ، وحتى كان في البقعة المباركة المطهرة ، التي جعلتها آرجوس حرماً للآلهة ، وأقامت فيها التماثيل لأربابها ، فوقف دانوس يعرّف بناته بسادة الأولب ، وانطلق البنات [1] يغنين لآلهة هيلاس ، ويقرئنهن السلام من آلهة النيل ، وطفقن يهزجن بنشيد طويل حلو ، تنضحه الدموع وتصهره حرق في الضلوع ، ويفيض منه الموجمان الشجو والشكو !!

وإنهن لفي صلاتهن وتغنيهن ، وإذا رجل طوال سامق ، بادي الهيبة موفور الوقار يخرج إليهن فجأة من الأدغال القريبة ، فيقف لحظة يرنو إليهن ، ثم يتقدم فيسألهن :

— « مَن النِّسوةُ المهاجرات في هذا الزي الغريب ! منظر عجب وآلهة الأولب ! الشاكيات الباكيات في ثياب بربرية ، لا أرجيفية ولا إغريقية ؟ ! منْ ؟ ما هذه الأفنان الناضرة ؟ أمن الزيتون هي ! وفيم وضعتنها عند أقدام التماثيل يا مهاجرات ؟ تماثيل آلهتنا ، وأوثان أربابنا المباركة ؟ »

وتتقدم اليه كبراهن فتسائله :

— « إن يكن قد بدهك زينا فمن أنت ! أمواطن من آرجوليس ؟ أم موكل بهذا الحرم تحرسه وتقوم عليه ؟ أم عظيم من آرجوس ونابه من حكامها ؟ هل للسيد أن يجيب ؟ ! »

وهش الرجل وبش ، وتبسم ضاحكا من قول الفتاة ، ثم تلطف فذكر لها أن بيلاسجوس بن باليختون ، ملك آرجوس وحامي ذمارها ؛ وأوضح فذكر شعبه وأملاكه ومدائنه ، وهذا السهل وذاك الجبل وتلك الوهاد . . . وهاتيك البطاح

واهتزت الفتاة من رهبة وقالت : « إذن . . . فنحن نمت إلى آرجوس بوشائج القربى ، نحن يامولاي من نسل البقرة المشردة على حفافي النيل ... هرعنا إلى آرجوس نلتمس الحمى ! »

— « من نسل البقرة المشردة ؟ وتمُتّن إلى آرجوس بوشائج القربى ؟ عجيب وآلهة الأولب ؟ إن ملامحكن لا تدل على أصل إغريقي ألبتة !! وربما كنتن من هذه القبائل الضاربة في أباطح إفريقيا ... من مصر ... أو من أثيوبيا يا بنات ! أو عسى أن تكن هنديات من اللائى يضربن أكباد الابل هنا وهناك في جنبات آسيا ... آه ! لا لا ، بل عسى أن تكن أمازونات يا فتيات !! أمازونات لا يعرفن الرجال قط ... يغتذين باللحم النيء ! ... خبرنني بحق الآلهة عليكن ... إن كنتن تمتن بوشيجة إلى آرجوس فكيف كان ذلك ؟ ... »

— « قد يعرف الملك ما كان بين سيد الأولب وبين يو من علائق ! »

— « أجل ، أعرف . . . أعرف . . . ولكن ماذا كانت عاقبة يو ؟ »

— « لقد سحرتها حيرا بقرة [1] ... »

— « وزيوس ؟ ! ... »

— « سحر نفسه عجلا جسدا له خوار ! »

— « ثم ... ... »

— « ثم لم تبال به حيرا ، بل وكلت ببقرتها حارساً غليظاً ذا مائة عين ! »

(1) بنات دانوس هن خورس هذه الدرامة

(1) المأثور غير ما ذكر إسخيلوس ، فزيوس هو الذي سحرها

— « مائة عين ؟ حارس ذو مائة عين من أجل بقرة واحدة ؟ ياله من راع ! »

— « أجل ... آرجس أيها الملك ، الذى قتله هرمز »

— « ولما قتله هرمز ، هل أطلق سراح البقرة ؟ »

— « لا ، ولكنها أرسلت عليها الذبابة السامة تعضها ، وتنغص حياتها ، وتزيدها شقاء على شقاء

— « وأين انتهى بها المطاف يا فتاة ! »

— « خاضت البحر اللجى حتى كانت عند شواطئ مصر حيث تتدفق أمواه النيل . وثمة أعاد إليها زيوس شبابها وعنفوانها وأولدها إبانوس . . . منشئ ممفيس (١)

— « وهلا تذكرين لها أطفالاً آخرين ؟ »

— « بلى . ولدها « بل » وقد أنجب بل ولدين كريمين ، أبانا هذا الشيخ . . . و . . . .

— « أباكم ! ما اسمه ؟ . . .

— « دانوس أيها الملك ونحن بناته الخمسون . . .

— « وأخوه ؟ ما اسم أخيه ؟

— « إيجبتوس أمير مصر وملكها . . . والآن ! هل تأكدت من صدق منشئنا ؟

— « لا ريب ! حصحص الحق ! ولكن اذكرى لى فيم هاجرتن من بلادكن ؟

— « أوه !! إنه لأمر يهيج أشجاننا أيها الملك ! ؟ يا للدنيا التى تكظها الآلام . . .

— « إن لكن لشكاة يا فتيات ، فلا تخشين أن تبحن بها ، إنكن بحضرة ملك آرجوس وإن هذه الأفنان التى وضعتنها عند أقدام آلهتنا لتتكلم عن شكاتكن ! . . .

— « إن كان لا بد أن تعرف ، فقد رفضنا أن نكون خولا لعمنا إيجبتوس ! لقد أرادنا على أن نكون متعة لأبنائه الخمسين فرفضنا ، لأن شرائعنا تأبى ذلك ... وها قد لجأنا إليك لتحمينا فلا تسلمنا لعمنا أبداً ! »

— « يا للهول ! ! إنى لألمح لهب الحرب يومض فى ظلماء المستقبل ! »

— « ولكن زيوس سيكون إلى جانبك ! »

— « أواه ! قد أجر الخراب على آرجوس ! من يستطيع أن يمنع إيجبتوس حقه فيكن ؟ »

— « الآلهة تستطيع ذلك إذا أيدت قضيتنا وآزرتنا أيها الملك . . . الآلهة تنصر الفضيلة دائماً »

— « على كل . . . أنا لا أستطيع أن أبرم فى ذلك أمراً دون أن أستشير شعبى ورجال دولتى ! »

— « أنت الحكومة وأنت الشعب وأنت الدولة ! »

— « كلا يا فتيات ! أنا ملك آرجوس فحسب ! لا بد من الشورى ! »

— « إذن ! . . .

— « إذن ماذا يا فتيات !

— « إذن ... وحق آلهتك ... لنشنقن أنفسنا فى جذوع هذه التماثيل ! ولتكونن مأساتنا خزياً أبدياً فى شرف آرجوس لا تمحوه الأيام ! !

— « واحرباً ! على رسلكن يا فتيات ! لا تسئن الظن بشرف آرجوس وشجاعة ملكها . . . ولكنا هنا قلب واحد ينبض بأحاسيس واحدة ! بيد أننى أدلكن على مخرج من هذا المأزق الحرج ... ليذهب أبوكن – هذا الشيخ – بهذه الأفنان الناضرة ، فليلقها لدى أقدام الآلهة فى معبد المدينة حيث يعكف الشعب على أربابه يبتهل إليها ويصلى لها ... فإذا سأله فى ذلك أحد ، فليبث شكواه ، وليذرف دموعه ، وليكسب إلى جانبه الجماهير الحاشدة التى نحكم باسمها ونستمد منها سلطاننا ! فهنالك، وهنالك فقط ، يستطيع ملك آرجوس أن يؤيدكن ، وأن يحميكن ... أما أن أعدكن بالحماية من غير أن أرجع إلى شعبى... فـ ... فأنا أخشى أن يقولوا إنى أذهبت ريحهم وهرقت دماءهم فيما لم يكونوا منه بسبيل ! ! »

— ٥ —

ويُنفذ الملك مرشداً مع دانوس يدله على الطريق إلى معبد آرجوس الجامع ، ويودع البنات لينطلق بدوره ، فيؤيد قضيتهن بين وزرائه ، وليرقق قلوب الشعب من أجلهن ، وليضمن لهن مؤازرة آرجوس كلها

---

(١) هكذا تزعم أساطير اليونان عن نشر مدائن مصر القديمة ويرحم الله مينا !!

ويأخذ الفتيات فى صلاة طويلة كلها آمال وكلها أمانى ، وكلها ضراعة وكلها ابتهال ، وكلها تذكير للآلهة بما حاق بذرية يو التعساء ، ثم ثناء على أرباب الأولب لا ينتهى !

— ٦ —

وفيما هن يصلين هذه الصلاة الطويلة ، إذا أبوهن ، دانوس الشيخ ، يدخل عليهن فجأة ، حاملاً إليهن البشرى

— « ليهنكن يا فتيات !! ليهنكن ! لقد ضمنا أصوات الشعب وتأييد آرجوس ! »

— « أبانا ! بوركت ! ياللبشرى ! ولكن . . . قص علينا كيف تم ذلك بحق الآلهة عليك ! »

— « ما كدت أجوس خلال آرجوس حتى تكبكب الشعب حولى ، مأخوذاً بغرابة زيّى وعجيب هيئتى ... وزادهم إجلالاً أنى ظهرت فيهم كضيف للملك وصديق لآرجوليس ؛ فلما نثرت الأفنان عند أقدام الآلهة ، وصليت وبكيت ، وبثثت شكواى ، رثى الأرجيف الكرماء لى ، فناشدتهم أن يؤازرونى ، ويشددوا عضدى ، ضد عدوى الغاشم الذى أراد أن يفضحنى فيكن ، ويجر الخزى عليكن . فهتفوا لى ، وحيونى تحية الأبناء الأمناء ، وأعطونى موثقهم على افتدائى بأزكى الدماء . . . وعاهدونى على أن يذودوا العالمين دونى ... ثم هالنى أن أرى السماء ترسل أضواءها فتملأ أركان المعبد بهاءً وتكسبها رونقاً ورواء . . . وأقبل الملك فهتف الشعب له ، والتفوا حوله ، فخطبهم فى شأنى وحذرهم أن يغضبوا زيوس ربهم إذا لم يؤازرونى ، وينصرونى ، ويؤيدوا حقى على باطل عدوى . فهتفوا بلسان واحد أن كيف لا ينصرون لاجئاً إلى قدس زيوس ، مستجيرا به ، مستشفعاً بآرجوس يرجو حماها ! ثم عرضوا آخر الأمر أن أقيم بين ظهرانيهم كواحد منهم ، وأن تكون لكن من الحقوق ما للأرجيفيات ، غير خائفات ولا مروعات ... هذه يابنتى قصتى ، وهذه أقضية السماء فاشكرن لها وتبتلن »

(البقية فى العدد القادم) دريني خشبة

البريد الأدبي

أخي الأستاذ الزيات

لا أقدر أن أعلل المصادفة التي جعلتني أكتب قبيل شهر هذه المقطوعة « الاتصال » :

« لم تخلق الحياة جزءاً يستطيع أن يعيش متصلا ،
حتى الأموات الذين أنهوا دوراتهم يبقى اتصالهم بأرواحنا ،
والأحياء أنفسهم هل يستطيعون أن يعيشوا بغير أموات ؟
هم في يقظاتهم يعشون وراء خواطرهم وأفكارهم
وهم في أحلامهم يعيشون في جزائرهم النائية . . . »

ثم قدمت لي المصادفة كتاب « المرملة » لماترلنك ، فلمست بدهشة وتأثير « صوفيته العميقة » وإحساسه بالموتى الذين لا يموتون « لنكن مطمئنين فالموت لا يحفظ لنا شيئاً أكثر بهجة من الحياة ، وما الموت إلا حياة لا ينفذ إليها نصب ولا حزن ولا شقاء ! حيثما يقيم فالربح مقيم ولا شيء يضيع »

« لا نصل من أجل الموتى ! ولكن لنأتهم مبتهلين فان ما يملكونه لنقدمه إلينا أكثر مما نملكه لنقدمه إليهم »

ثم جاءت كلمة الأستاذ أحمد أمين تحمل إليك التعزية في الرجاء الذاهب والكوكب الغارب !

يقول بوذا : « لا تقيد نفسك بالمحسوسات ، فالتقيد بها يشقيك . . . عش متجردا من كل حب محسوس وعلاقة محسوسة » وقد أجد في هذه الكلمة كل الشفاء لو تستقر في النفس . ولكن النفس التي تؤلف كل هذا المحسوس وترتبط به في كل لحظة وتعيش معه في كل مكان ، كيف ينزع منها ولا تجد لنزعه مرارة ؟ وكيف لا تحس به النفس وهي تغذيه كل يوم بدموع !

جميل أن أعيش بعيداً عن المحسوس ، وأجمل منه هذا العقل الذي يغرس في قلبي هذا الايمان المجرد ؛ وهل أستطيع أن أبلغ الايمان المجرد إلا بعد أن تجردني الحادثات وتنثر أوراقي كالشجرة التي لا تلمس نفسها وتحس وجودها إلا بعد أن تتجرد من أوراقها وأزهارها . ولا يأتي التجرد من غير ثمن !

ثمن هذا التجرد شقاء نتحمله ، وألوان من العذاب نتذوقها ، وقطع من أكبادنا تمشي على الأرض إلى الأرض !

لا أستطيع أن أقول لك : « تعز يا أخي بالتجرد ! » وهذا التجرد نفسه يحتاج إلى تعزية ! ولا أن أقول : « انفض يديك من الصغير المفقود » فانه جر الى التراب قطعة من كبدك معه . ولكن دع هذه القطعة فيها حركة وفيها حياة ... تحيا تحت التراب كما تحيا فوقه . . . ومتى رأيت أن الحياة تعمل هناك كما تعمل هنا ، وأبصرت أن الحياة التي تتمشى في جذور الأرض هي التي تتمشى في مطالع أزهارها ، كان لك من هذا عزاء ، لأنك تأمن على هذه القطعة التي ساخت منك . وفي الذكرى المتصلة حياة ، وفي الرجاء المتصل الذي لا ينقطع ألف حياة ؟

خليل هنداوي

حول رائي الأندلسي المجهول

يرجع الفضل في العودة الى اثارة البحث عن صاحب القصيدة التي نشرها ، للمرة الأولى ، الدكتور صوالح محمد بالجزائر سنة ١٩١٩ ، الى صديقي السيد عبد الرحمن حجي ، مدرس اللغة العربية بمدرسة أبناء الأعيان بسلا . واتخذ ميدانه « الرسالة » (عدد ١٣١ — ٣٦/١/٦) وطلب من المشتغلين بالأدب الأندلسي أن يعلنوا عن صاحبها إذا عرفوه ، فلم يجبه أحد سوى السيد محمد عبد الله عنان الذي حاول في مقالة نشرتها له « الرسالة » أيضاً عدد (١٣٣ — ٢٠ / ١ / ٣٦) تحقيق فترة الدهر التي يرجع اليها قرض القصيدة تسهيلا في البحث عن صاحبها وعصره .

وقال السيد حجي إنه عرض القصيدة على المؤرخ المغربي السيد محمد بن علي الدكالي السلوي فذكر له أن صاحبها كما يفهم من القصيدة من المرية ، ولعله أبو جعفر بن خاتمة ، وقد تكون مذكورة

فى كتابه « مزية المرية » الذى فى دير الأسكوريال نسخة منه .
وقال السيد حجى أيضا إن الدكتور صوالح قال فى كتابه إن هذه القصيدة من جملة القصائد التى بعثها مسلمو الأندلس يستغيثون بها السلطان العثمانى بايزيد الثانى . ولم نعثر نحن على هذا القول فى الكتاب المذكور

أما نسبتها الى أبى جعفر أحمد بن خاتمة فهو غلط تاريخى ، فقد مات هذا فى اليوم السابع من شهر شعبان سنة ٧٧٠ (فهرست أبى عبد الحضرامى السبتى ، التى ألفها له الخطيب بن مرزوق (النفح ، ج ٣ ، ص ٢٤٤ ، ط القاهرة)

وابن خاتمة من معاصرى لسان الدين بن الخطيب المشهورين وله معه مكاتبات . وله أيضا فى الوزير قصائد (النفح ، ج ٣ ، ص ٤٣٣ ط القاهرة) . ومن جهة أخرى ، فقد ترجم الوزير فى الاحاطة لابن خاتمة وعدّه من أصدقائه (الاحاطة ، ج ١ ، ص ١٧٤ ، ط القاهرة ١٣١٩)

فليست القصيدة إذاً لابن خاتمة الذى مات ، على الأقل ، منذ ٨٠ سنة قبل الفترة التاريخية التى قيلت فيها والمستنجدة منها ، كما لا يمكن أن تجىء فى كتابه « مزية المرية »

وجاء البيت ٧٧ من القصيدة هكذا :

تَرى فى الأسى أعلامَها وهى خُشَّعٌ ... ومِنبرُها مُستعبِرٌ وسريرُها

سقطت « فى » من صدره فى الأصل وفى « الرسالة » ، إلا أن ناشر الأصل نبّه عن ذلك فى آخر الكتاب فى جدول التصحيح . ولعل صديقى حجى أغفل النظر الى الجدول

حول ذخيرة ابن بسام أيضا

واهتبل الكتابة الى « الرسالة » التى مضى لها الكلام حول ذخيرة ابن بسام (عدد ١١٥) لأزيد أن النسختين المعروفتين اليوم بالمغرب الأقصى من هذا التأليف هما :

١ — نسخة ينقصها الجزء الرابع فى خزانة السيد عباس بن ابراهيم ، أحد قضاة مدينة مراكش الحاليين

٢ — نسخة أخرى ينقصها الجزء الرابع أيضا ، كانت لأوقاف مدينة تطوان بمنطقة النفوذ الأسبانى بالمغرب ، ولكن شخصا توصل الى اقتنائها وحملها الى الرباط بمنطقة النفوذ الفرنسى . وقد اقتنتها منه الحكومة المغربية لخزانة الرباط العمومية . وقد دخلتها فعلا ، وقيدت برقم (١٣٢٤) بدفتر المخطوطات العربية الثانى . ولم يقتنها السيد ليفى بروفنسال لنفسه كما شاع ذلك بالمغرب . وقد استعارها أخيراً السيد ليفى بروفانسال الأستاذ بجامعة الجزائر بواسطة خزانة مدينة الجزائر الأهلية . ولعله لينشرها أو ليقارنها بأخرى . ومما لا شك فيه أن بخزائن المغرب نسخا أخرى لا تزال مجهولة

عبرات حرار

ولتسمح لى « الرسالة » مرة أخرى ، لأنتهز هذه الفرصة أيضاً لأوجه هذا السؤال الى السيد عبد القادر المغربى رئيس المجمع العربى بدمشق سابقاً

سيدى :

قلتَ فى « مجلة مجمع اللغة العربية الملكى » (عدد ١ صفحة ٣٣٨) :

« إن العرب إن لم يصفوا الدموع بلفظ الحرارة فانهم وصفوها بمرادف الحرارة ، أعنى « السخونة والاحراق » . . .

« والفرق بين العربى والأفرنجى : أن الأولين ينسبون السُّخونة الى العين نفسها ، والافرنج ينسبون الحرارة الى دموعها

فما رأيك يا سيدى فى قول الخنساء :

مَنْ كان يوماً باكِياً سَيِّداً ... فليبكه بالعَبَرَاتِ الحِرارِ

(سلا — المغرب الأقصى) محمد عصار

كتاب هام عن المسألة الفلسطينية

أثارت المسألة الفلسطينية فى العهد الأخير كثيراً من الاهتمام وصدرت عنها وعن تطوراتها كتب كثيرة ، ولكن معظم هذه الكتب يميل إلى الناحية اليهودية وإلى تأييد السياسة البريطانية وإنشاء الوطن القومى اليهودى ، وقلما ينصف العرب أو يقدر مطالبهم وحقوقهم قدرها ؛ بيد أنه ظهر أخيرا كتاب بالانكليزية عن المسألة الفلسطينية عنوانه « فلسطين العربية » Palestine of the Arabs بقلم السيدة بياتريس ستيوارت إرسكين B. S. Eraskine يؤثر الناحية العربية بكثير من الشرح والتفصيل ، ويميل الى إنصاف العرب وتصوير وجهة النظر العربية تصويراً عادلاً .

وتمهد المؤلفة لبحثها باستعراض تاريخ فلسطين منذ أقدم العصور حتى الحرب الكبرى، ثم تاريخ المسألة الصهيونية منذ فاتحة القرن الماضي حتى سعى اليهودية إلى عرض تأييدها ونفوذها على الحكومة الأنكليزية مقابل إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين، وصدور عهد بلفور الشهير بانشاء الوطن القومي، ثم قيام الانتداب البريطاني على فلسطين

وتشير المؤلفة إلى إغفال رأى العرب فتقول إن منح فلسطين لتكون وطناً قومياً لم يرجع فيه إلى رأى السكان «الفقراء» الذين كانوا حلفاءنا. كذلك لم تقدر فيه عواقب تدفق الهجرة إلى بلد صغير محدود الموارد، ولم تكن هناك سياسة ثابتة لمعالجة الموقف الذى ينشأ عن ذلك، وهى سياسة كان يجب أن تقوم على استشارة ذوى الشأن جميعاً، وأن يراعى فيها تنفيذ الشطر الثانى من تصريح بلفور الخاص بأنه «لن يعمل شيء يمكن أن يضر بالحقوق المدنية أو الدينية للطوائف غير اليهودية من سكان فلسطين»، ولا ريب أن تعيين هذه الحقوق الدينية والمدنية كان من شأنه أن يفر كثيراً من سوء التفاهم، وأن يحمل العرب على الثقة بالدولة المنتدبة، وأن يزيد فى احتمال التعاون بين مختلف العناصر

وقد هرع اليهود إلى البلاد لا كمهاجرين بل كفاتحين، وشعر العرب بأنهم حرموا كل نصيب فى النفوذ والحكم؛ وكان المندوب السامى الأول يهودياً، فكان تعيينه ضربة للعرب. وتعاقب المندوبون السامون وتعاقبت الوزارات البريطانية ولم يجد العرب إنصافاً، وألفت السلطات يدها مغلولة بنصوص الانتداب، واستمر الاحتكاك بين العرب واليهود؛ وزادت المنازعات الدينية الأمور تعقيداً، وكانت تنتهى أحياناً بسفك الدماء. بيد أن اليهود لم يكتفوا بما بلغه الوطن القومى من التوطد والتقدم، فهنالك «حزب الاعادة» الذى يتزعمه فلاديمير جابوتنسكى، وهو يطالب باطلاق الهجرة اليهودية من كل قيد، وحماية المستعمرين بمنحهم حقوقاً ومزايا خاصة، وغير ذلك من المطالب المتطرفة

ولا ريب أن العرب يقابلون كل هذه المطالب والدعاوى بالانكار والمقاومة؛ ومن المستحيل أن تعاون الأحوال القائمة على وضع أى حل مرض للمسألة الفلسطينية

وتقترح المؤلفة من عندها حلا يقوم على التوزيع الجغرافى، وترى أن تقسم فلسطين إلى قسمين يكون كل منهما دولة خاصة، فتكون إحدى الدولتين عربية وعاصمتها بيت المقدس وثغرها يافا؛ وتكون الأخرى يهودية وعاصمتها وثغرها تل أبيب، وتنضم الدولتان إلى عصبة الأمم؛ وتعتبر بيت المقدس وحبرون وطبرية وصفد وبيت لحم مدناً دينية تخضع للنظم والقوانين التى تضعها عصبة الأمم، وتبقى حيفا ثغراً حراً، وتضم شرق الأردن إلى فلسطين العربية

والخلاصة أن المؤلفة تبدى كثيرا من الاعتدال فى عرض المسألة الفلسطينية وتخص الناحية العربية بكثير من الانصاف والعطف، وتبدى شجاعة فى عرض القضية العربية يندر أن يبديها قلم أجنبى. ومن ثم فان كتابها خليق باهتمام العرب، وهو بلا ريب وثيقة مفيدة فى عرض القضية العربية فى انكلترا وفى أوربا

قصص فلسطينية

صدرت أخيرا ترجمة انكليزية عبرية من القصص الفلسطينية عنوانها Palestine Caravan أعنى «قافلة فلسطين» بقلم الكاتب اليهودى موشى سميلانسكى M. Smilansky وهذا الكاتب القاص معروف بين مواطنيه بقوة تصويره وطرافة خياله. ويحتوى كتابه المذكور على إحدى عشرة قصة فلسطينية، عن اليهود والفلاحين والبدو، ويميل سميلانسكى بنوع خاص إلى تصوير الحياة الريفية، ويجيد هذا النوع من الصور. وبين القصص المذكورة عدة تمتاز بحسن السبك والمفاجآت المدهشة، وبينها عدد يمتاز بحسن التصوير والدراسة الطبيعية والنفسية العميقة ولا سيما فيما يتعلق بدسائس القرية، ووصف الحياة الريفية ذاتها وحياة الفلاحين وأعمالهم فى الحقل والمنزل، ومما يلاحظ أن الكاتب حتى فى دراساته الوصفية يجانب الأسهاب الممل، ويقتصر فى الوصف واللفظ على ما لا بد منه لاظهار الصور والمعانى

طريقة المجمع اللغوى فى كتابة الأعلام الأعجمية

وافق مجمع اللغة العربية الملكى على القواعد الآتية فى كتابة الأعلام الأعجمية وهى :

١ — أن يكتب العلم الأفرنجي بحسب نطقه في اللغة الأفرنجية ومعه اللفظ الأفرنجي بحروف لاتينية بين قوسين في البحوث والكتب العلمية على حسب ما يقرره المجمع في شأن كتابة الأصوات اللاتينية التي لا نظير لها في العربية

٢ — تكتب أسماء الأعلام بحسب النطق بها في لغتها الأصلية أي كما ينطق بها أهلها وليس كما تكتب . مع مراعاة ما يأتي :

٣ — جميع المعربات القديمة من أسماء البلدان والممالك والأشخاص المشهورين في التاريخ التي ذكرت في كتب العرب يحافظ عليها كما نطق بها قديماً ، ويجوز أن نذكر الأسماء الحديثة التي شاعت بين قوسين ، وإذا اختلف العرب في نطقين رجح أوثقهما

٤ — أسماء البلدان والأعلام الأجنبية التي اشتهرت حديثاً بنطق خاص وصيغة خاصة مثل باريس وانجلترا والنمسا وفرنسا وغير ذلك تبقى كما اشتهرت نطقاً وكتابة

٥ — الأعلام القديمة يونانية ولاتينية ينظر في وضع قواعد خاصة بها

٦ — الأعلام السامية القديمة التي تكتب بحروف الهجاء الخاصة بها توضع لها قواعد خاصة بها

٧ — اللغات التي لا تزال تكتب بالحروف العربية ، ولكن فيها أصواتاً ليس لها حروف عربية ، ولهذه الأصوات في لغاتها حروف خاصة اصطلح عليها كالفارسية والملاوية والهندستانية والتركية في الحكم العثماني ، ترى اللجنة بشأنها أن تدرس هذه الأصوات الخاصة وتتخذ لها الحروف التي وضعها لها أهلها

٨ — بعض القبائل والبلاد الاسلامية لها لغة خاصة لا يستعملونها غالباً في الكتابة ، وإنما يكتبون باللغة العربية ، ولكن لها أعلاماً بعض أصواتها لا يطابق الحروف العربية ، وقد وضعوا لها إشارات لتأدية هذا النطق ، وفي بعض الأحيان تكون هذه الاشارات متعددة للصوت الواحد — ترى اللجنة بعد البحث أن يختار أحد الاصطلاحات في كتابة هذه الأعلام

وانتهى المجمع من المناقشة في هذا القرار بوضع الحرف — جاف — ويكتب كافا على شرطتها ثلاث نقط

٩ — الأسماء الأجنبية النصرانية تكتب كما عربها نصارى الشرق . فمثلا يقال بطرس في Peter وبقطر في Victor وبولس في Paul ويعقوب في Jacob وأيوب في Job وهكذا

١٠ — قبلت اللجنة إدخال الحروف (P) ورسمته باء تحتها ثلاث نقط و (تش ch) ورسمته جيما تحتها ثلاث نقط ، و (J) ورسمته زايا فوقها ثلاث نقط ، و (G) ورسمته كافاً فوقها ثلاث نقط وهو حرف الجاف ، وقد أرادت اللجنة من إدخال هذه الحروف للإشارة بها إلى بعض الأصوات التي لا توجد في العربية واختارت هذه العلامات لتداولها في اللغات الفارسية والتركية والهندية والملاوية

١١ — قبلت اللجنة أن يكتب الحرف (V) واوا بثلاث نقط فوقها وقد عدلت اللجنة عن كتابة (ف) بثلاث نقط لأن هذا الحرف مستعمل في بلاد المغرب إشارة إلى الحرف (جاف) أي الكاف المعقودة ، وفي الملايو إشارة إلى الحرف (P) لتعيين بعض الأصوات في الأعلام الافرنجية

١ — اللغات التي لا تزال تكتب بالحروف العربية ولكن فيها أصواتاً تخالف أصوات الحروف العربية ولهذه الأصوات في لغاتها حروف خاصة اصطلح عليها كالفارسية والملاوية والهندوستانية ، ترى اللجنة بشأنها أن تدرس هذه الأصوات الخاصة وتتخذ لها الحروف التي وضعها لها أهلها

وقد درست اللجنة هذه الأصوات الخاصة المشار إليها ووضعت فيها ثلاثة قرارات :

(ا) الحرف (انج) في لغة الملايو . يرسم نون وجاف وهو يرسم في لغة الملايو غينا فوقها ثلاث نقط

(ب) الحروف الهندية المرسومة راء ذات أربع نقط ، وتنطق بين الراء والضاد ، وكذلك الراء التي فوقها طاء يكتفى بكتابتها راء عربية . وكذلك الدال التي فوقها أربعة نقط يكتفى بكتابتها دالا عربية

(حـ) بعض أسماء البلاد في جزائر الهند الشرقية ومقاطعة موريتانيا وما يليها تنتهي بحسب نطق أهلها بفتحة مثل ولات ومندر وبعضهم يكتب بعد الحرف الأخير المفتوح تاء مربوطة ، وترى اللجنة أن تختم كل الأعلام التي من هذا القبيل بتاء مربوطة وقد اتبع ابن بطوطة هذه القاعدة

٢ — ب ـ a ـ بالانجليزية يكتب ألفا . وإذا كان فى أول الكلمة تكتب ألفاً عليها همزة . والحروف الانجليزية (y,u,e) وما أشبهها فى النطق تكتب بالعربية ياء . وإذا كان الحرف ممالا فى اللغة الأجنبية ، وضعت ألف قصيرة قبل الياء لتدل على أنه ممال كالمدة (٨) للدلالة على الاشمام مثل كوته والحرف الأول هو حرف الجاف

٣ — تكتب الأعلام التركية كما كتبها الترك بالحروف العربية حسب الاصطلاحات المتداولة عندهم ، قبل اتخاذ الحروف اللاتينية وما جد بعد ذلك فحكمه حكم اللغات الافرنجية

٤ — الأعلام الأجنبية المنتهية فى نطقها الأصلى بألف تكتب بالألف إلا فيما عربه العرب بالتاء المربوطة ، كبخارى وبصرى وكسرى وعيسى وموسى

٥ — الامالة :

رأت اللجنة أن توضع علامة أشبه بالمدة الرأسية للدلالة على هذا الصوت كما فى ـ Jaipur ـ مثلا فتكتب هكذا جيبور مع وضع مدة رأسية فوق الياء ولذلك يكتب حرف (J) كما ينطق به أهل كل لغة ، لأنه فى الألمانية ينطق (ى) وفى الاسبانية (خ) كما هو فى موخاكار (Mojacar) وكذلك رأت اللجنة أن تضع علامتين للدلالة على حرف (u) وحرف (o) المخفف والمثل على الأولى Jeande Luz فتكتب فى العربية « زان ده لوز » بوضع ثلاث نقط فوق الزاى وعلى اللام علامة رقم (٧) للدلالة على هذا الصوت والثانية كما فى Geothe فتكتب فى العربية كوته وعلى الجاف علامة تشبه رقم (٨) كما سبق ذلك

حول كتاب الذخيرة أيضاً

للمرة الثانية نرى فى سيدة الصحف العربية « الرسالة » الغراء التنويه التام بالعلامة المستشرق الفرنسى الاستاذ ليفى بروفنسال إذ كان السبب الوحيد فى استكشاف أثر حافل عن تاريخ الأندلس هو نسخة كاملة من كتاب « الذخيرة » لابن بسام ، وساعده على ذلك أنه كان مديراً لمعهد المباحث العالية المغربية برباط الفتح ، فقد نوهت به للمرة الأولى فى العدد (١١٥) بقولها « ... لبث يبحث وينقب أعواماً طويلة فى خبايا المكاتب المغربية حتى ظفر بنسخة حسنة كاملة من كتاب : (الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة) وقالت مثل ذلك فى العدد (١٤٠)

على أن الحقيقة ونفس الأمر خلاف ما كتبته الصحف الأوروبية وخلاف مانقلته الرسالة . والحقيقة التى لا يشوبها شىء هى أن كتاب الذخيرة كان فى خزانة القائد الأكبر السيد اليزيد ابن الصالح الغمارى (القاطن بغمارة من أعمال تطوان) من جملة الآثار النفيسة الموجودة بخزانته القيمة التى خلفها أسلافه الكرام حبوساً على عائلته أولاد صالح . وفى ذات يوم أتاه بعض أصدقائه وطلب منه إعارة الذخيرة على أن يلتزم بطبعها والربح يقسمه بينهما ، فاستحيا منه القائد ومكنه منها ، فذهب تواً إلى خزانة المخزن الكبرى بالرباط وطلب من رئيسها شراءها منه فأخذها وأجله للغد ، وفى الغد ذهب للخزانة فأعطاه الرئيس (٣٠٠٠) فرنك ثمن الذخيرة ، فأبى من البيع ، فلم يرض الرئيس بردها له قائلا : إن المخزن الشريف أرادها فخذ الثمن أو اذهب ؛ فلم ينفعه إلا أن أخذ الثمن وذهب لسبيله . تلك حقيقة قصة كتاب (الذخيرة) واكتشافها

ونحن لا ننكر فضل الأستاذ ليفى بروفنسال فهو كما ذكرت (الرسالة) الغراء وزيادة ، وإن ننس فلا ننس جهوده التى بذلها نحو الكتب الاسلامية ، وإنما نحب إظهار الحقيقة ليس إلا . ومن الكتب التى اعتنى بنشرها هذا الأستاذ ولم تذكرها الرسالة : المجلد الأول من (الجامع الصحيح) للامام أبى عبد الله البخارى المكتوب بخط ورواية أبى عمران موسى بن سعادة الأندلسى ، نقل منه نسخاً عديدة بالتصوير الشمسى ومعه كتاب (التنويه والاشادة بمقام رواية ابن سعادة) للعلامة المحدث الشهير صاحب الفضيلة السيد محمد عبد الحى الكتانى ، والقسم الثانى من (الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام) لذى الوزارتين لسان الدين بن الخطيب ، وكتاب (مفاخر البربر) مجهول المؤلف ، و (نخبة تاريخية) جامعة لأخبار المغرب الأقصى جمعها من كتب شتى ؟ و (نبذ تاريخية) فى أخبار البربر فى القرون الوسطى انتخبها من كتاب مفاخر البربر المتقدم وغيرها من الكتب

(فاس — المغرب الأقصى) ادريس الكتانى